كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت. ٢١٨١٠

بيـان

أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك مافرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه، إلا الزلات التى لاينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة . فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خفافاً » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لاينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملى بمجاهدتها وردها .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده وصبره . وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ، حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ، ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى . واشتراط هذا بعيد ، وإن كان لاينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لاينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهيج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطمع فى الانكفاف ، فإنه لايؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المعصية ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى

---

(١) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم

يسد طرقها على نفسه ،ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه،فبه تسلم توبته في الابتداء

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ،وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله ، من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها . ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ماتستهدف له من الأحوال الذميمة ، لا عن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى . وهي أغلب أحوال التائبين . لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه . وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الحسنات . فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات ، فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى ، إذ قال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ [1])

فكل إلمام يقع بصغيرة ، لا عن توطين نفسه عليه ،فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ [2]) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه عليّ كرم الله وجهه [1] « خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ » وفي خبر آخر [2] « الْمُؤْمِنُ كَالسُّنْبُلَةِ يَفِيءُ أَحْيَانًا وَيَمِيلُ أَحْيَانًا » وفي الخبر [3] « لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ » أي الحين بعد الحين

---

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب :البيهقي في الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفيء أحيانا وتميل أحيانا : أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقدم بدل تفيء وفي الأمثال للرامهرمزي إسناد جيد لحديث أنس

(٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني : والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

---

(١) النجم : ٣٢ (٢) آل عمران : ١٣٥

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة ، عما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى، من غير مداومة واستمرار . وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبى صلى الله عليه وسلم[1] « كُلُّ بَنِى آدَمَ خَطَّاءُونَ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ » وقال أيضا[2] « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ * فَخَيْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ » أى واه بالذنوب، راقع بالتوبة والندم. وقال تعالى (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ[1]) فما وصفهم بعدم السيئة أصلا

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول . ليتنى لم أفعله ، وسأتوب عنه ، وأجاهد نفسى فى قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا[2]) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث

---

(١) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون * قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى

(١) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا فسعيد بدل فخيرهم

* راقع : أى يهى دينه بمعصيته ويرقعه بتوبته من رقعت الثوب إذا رقعته

(١) القصص : ٥٤ (٢) التوبة : ١٠٢

تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة : فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة ، التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء في حقه . وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل ، دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس ، الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفقيه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم ، إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) فمهما وقع العبد في ذنب ، فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا »

فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع في المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك انهماك

---

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

---

(١) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

الغافل فى اتباع شهواته . فهذا من جملة المصرين . وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده ، وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز فى المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من اتجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعا ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ، وإن كان ماينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعد عند أرباب القلوب من المتوهين

والعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويجه حماقته فى صيغة حسنة ، إذ يقول . إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتى ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستجمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ، ويقول . ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل

لمافيهما جميعا . وأنه قدأخبر إذ قال (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [١]) فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا . وكيف يقول . ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا . وينسى قوله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٢])

فنعوذ بالله من العمى والضلال . فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ،وانغماس فى ظلمات الجهل : وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً [٣])أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [٤]) فارجعنا نسعى.وعندذلك لا يمكن من الانقلاب ،ويحق عليه العذاب:فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب

بيان

ما ينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه . فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها ،فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ،فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان، وإما بالجوارح . ولتكن الحسنة فى محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب ، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ،ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين ، والعزم على الطاعات

(١،٤) النجم : ٣٩ (٢) الذاريات : ٢٢ (٣) السجدة : ١٢

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفر لى ذنوبى . وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه فى كتاب الدعوات والأذكار

وأما بالجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا . أربعة من أعمال القلوب ، وهى التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهى أن تصلى عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما . وفى بعض الآثار [١] : تسبغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلى ركعتين . وفى بعض الأخبار [٢] : تصلى أربع ركعات . وفى الخبر [٣] « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تُكَفِّرْهَا السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَةِ » ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفى الخبر الصحيح ، [٤] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إنى عالجت امرأة

---

(١) أثران من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين: أصحاب السنن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبى داود وهو فى الكبرى للنسائى مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابى

(٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : إبن مردويه فى التفسير والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ـ الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفى النهار الآية وأسناده جيد

(٣) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية: البيهقى فى الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبرانى من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ـ الحديث :

(٤) حديث أن رجلا قال يارسول الله إنى عالجت امرأة فأصبت منها كل شىء إلا المسيس ـ الحديث: فى نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبى أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم ـ الحديث :

فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض علىّ بحكم الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم « أَوَ مَاصَلَّيْتَ مَعَنَا صَلَاةَ الْغَدَاةِ » قال بلى . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلاَّ الْكَبَائِرَ »

فعلى الأحوال كلها، ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته، ويجتهد فى دفعها بالحسنات.

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفى الخبر[1] « الْمُسْتَغْفِرُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَيْهِ كَالْمُسْتَهْزِيءِ بِآيَاتِ اللهِ » وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولى أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير

فاعلم : أنه قد ورد فى فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، ذكرناها فى كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[1]) فكان بعض الصحابة[2] يقول : كان لنا أمانان ، ذهب أحدهما. وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذى هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله فى سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة فى نفسها ، فتصلح

---

(١) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله :ابن أبى الدنيا فى التوبة من طريقه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزىء بربه وسنده ضعيف

(٢) حديث بعض الصحابة فى قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبى موسى الأشعرى ورفعه الترمذى من حديثه أنزل الله على أمانين ـ الحديث: وضعفه وابن مردويه فى تفسيره من قول ابن عباس

---

(١) الانفال : ٣٣

لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار . حتى قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَاأَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لابد للعبد في كل حال من مولاه . فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء : فإن عصى قال يارب استر عليّ . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب عليّ . فإذا تاب قال يارب ارزقني العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل مني .

وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة . فالاستجابة أعمال الجوارح ، والإنابة أعمال القلوب . والتوبة إقباله على مولاه ، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ثم محادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه . ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش

وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ » فقال . إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر في قوله تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ [1]) الآية ـ وقال الحبيب هو الذي لايدخل فيما يكرهه حبيبه

والمقصود أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لاذنب له والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات : فليس يخلو عن الفائدة أصلا . فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها ، أن قول الله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ [2]) صدق

---

(١) حديث ماأصر من استغفر ـ الحديث : تقدم في الدعوات

---

[1] التوبة : ١١٢ [2] الزلزلة : ٧

وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المتوهمة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة

فإذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه . فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرءان وقلبى غافل ، فقال: اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك فى الخير ، وعوّده الذكر ، ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصى . فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى مانو عدفقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول ، سبق لسانه إلى قول : ما أحمقك ، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال : لعنه الله . فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [1]) ومعانى قوله تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً [2]) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ، هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات : وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون

---

(١) التوبة: ١٢٠ (٢) النساء: ٤٠

فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات ، فتفتر رغبتك عن العبادات ، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب . فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأسعف الشيطان ، وتدلى بحبل غروره ، فتمت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه.

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل ، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول ، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير

فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة ، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس . فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة . ولذلك قالت رابعة العدوية . استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد

فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم ، وحمد ما يحمد ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى . ولذلك قال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل رضاه فيه .

وغضبه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته فى عباده ، فلا تحقروا منهم أحدا ، فلعله ولىّ الله تعالى . وزاد وخبأ إجابته فى دعائه ، فلا تتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه

الركن الرابع

فى دواء التوبه ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان :

شاب لاصبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ » * وهذا عزيز نادر

والقسم الثانى :هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لايحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لايقف على الداء إذ لامعنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعه ، وإبطاله . ولا يبطل الشىء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى (وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ [1]) فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ، ومرارة الصبر . وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولابد من بيانهما

فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن العلوم

---

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة :أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

* ليست له صبوة : اى ميل إلى هوى

---

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

بجملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار ، على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة في الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لابد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثاني : أنه لابد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب ، حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف

الثالث : أنه لا بد أن يصغي إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء . ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر ، الذي هو الركن الآخر في العلاج

الرابع : أن يصغي إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه في نفسه الاحتماء عنه ، ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، ومأكوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شيء ، ولا ينفعه كل دواء . بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص . ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم

بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة ، أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز مايضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه مالم يُعرِّفه غيره. وهذا فرض عين على العلماء كافة

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلابد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكف شره ، كما يُسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى ، أو الذى غلب عليه الجنون ، إلى القيّم ليقيده بالسلاسل والأغلال ، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها : أن المريض به لا يدرى أنه مريض

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد فى هذا العالم ، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا

وقـــد غلب هـذا الداء على الأطباء ، فـلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافا من أن يقال لهم . فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ، فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا . وإذ لم يُصلحوا لم يُفسدوا . وليتهم سـكتوا ومانطقوا . فإنهم إذا تـكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا مايرغب العوام ، ويستميل قلوبهم. ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألذ فى الأسماع ، وأخف على الطباع . فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ، ومزيد ثقة بفضل الله. ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه ، فالرجاء والخوف دوآن ، ولـكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالـكلية ، وكلف نفسـه مالا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالـكلية ، فتـكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكـر أسباب الرجاء ، ليعـود إلى الاعتـدال .

وكذلك المصر على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت ، يعالج أيضا بأسباب الرجاء ، حتي يطمع فى قبول التوبة فيتوب

فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء . وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذاً فساد الأطباء هى المعضلة الزباء التى لاتقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلـكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمـكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أنواع

الأول : أن يذكر مافى القرءان من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار . مثل قوله صلى الله عليه وسلم (١) « مَامِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةٍ

---

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولاليلة غاب شفقها إلاوملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ــ الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبومنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ان لله ملكا ينادى فى كل ليلة أبناء الاربعين زرع قددنا حصاده ــ الحديث : وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ــ الحديث :

غَابَ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَبَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا » وفى بعض الروايات « لَيْتَهُمْ تَجَالَسُوا فَتَذَاكَرُوا مَاعَلِمُوا وَيَقُولُ الْآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا عَلِمُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا »

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . مامن عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا . فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه . ولعله يتوب إلىّ فأغفر له . ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات . فذلك معنى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ [1])

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه [1] « الطَّابِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّابِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفى حديث مجاهد [2] « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ أُصْبُعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن . إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه، فلم يوفقه بعدها لخير

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى . فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] ، فإنه ماخلف دينارا ولا درهما ، إنما

---

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات ـ الحديث : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر

(٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة

(٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ماخلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة : البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ماترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا وفى حديث أبى الدرداء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم ـ الحديث : وقد تقدم فى العلم

---

(١) فاطر : ٤١

خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق . مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، ومالقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه. ونودي من فوق العرش . اهبطا من جواري فإنه لايجاورني من عصاني . قال فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذى عبد في داره أربعين يوما ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل. وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فإني سليمان ابن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه . فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروي في الإسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبيا في بني اسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى

وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديدا ، فكأنه أعجبه . قال فوضعته الريح. فقال لمَ فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت إنما نطيعك إذا أطعت الله

وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك

يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال لأنك رجوتنى وقلت (عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً [١]) وبما قلت (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا [٢]) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ [٣]) قال الله تعالى (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ [٤]) وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرءان والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل مايصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته . فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله . فينبغى أن يخوف به . فإن الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر . كما حكي فى قصة داود وسليمان عليهما السلام . حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام [٢] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا فى الوجه ، ونقصا فى المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله

---

(١) حديث ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له إلا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان ،

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لايعود اليه أبدا : تقدم

---

(١) يوسف : ٨٣ (٢) يوسف : ٨٧ (٣ ، ٤) يوسف : ٤٢

او شر منه ، وهو كما قال . لان اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير، ويسر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين . بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي في الوحل جامعا ثيابه ، محترزا عن زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول : هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها، حتى يقع في ذنب وذنبين، فعندها يخوض في الذنوب خوضا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ، فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه ، فوقفت أنظر إليه ، فمر بي ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ يدي فاستحييت منه . فقلت ياأباعبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت للنار . فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة ، وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال . لايفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفي الخبر (١) «مَاأَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ» وفي الخبر (٢) «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَاأَصْنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أَحْرِمَهُ لَذِيذَ مُنَاجَاتِي»

وحكي عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها ، قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلي ، فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدي كله ، فاستترت في البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا اسوادا ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد، وكان

---

(١) حديث ماأنكرتم من زمانكم فبماأنكرتم من أعمالكم : البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هاني * قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل .

(٢) حديث يقول الله ان أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي : غريب لم أجده

قد وجه إلىّ فاشخصنى من الرقة . فلما أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائما بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ؟ فلولا أنى دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب مابعده صفته . فإن ابتلى بشىء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ، ويحرم جميل الشكر ، حتى يعاقب على كفرانه. وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته، ويوفق لشكرها. وكل بلية كفارة لذنوبه، وزيادة فى درجاته

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه . بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولا بالنبض ، والسحنة ، ووجوه الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] حيث قال له واحد : أوصنى يارسول الله ولا تكثر علىَّ . قال « لَا تَغْضَبْ » [2] وقال له آخر : أوصنى يارسول الله ، فقال عليه السلام « عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِى أَيْدِى النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغِنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى . فقال : أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة . قال وكيف لى بذلك ؟ قال الزم الزهد فى الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ

---

(١) حديث قال رجل أوصنى ولا تكثر علي قال لاتغضب : تقدم

(٢) حديث قال له آخر أوصنى قال عليك باليأس ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

أوصنى . فقال : كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصنى . فقـال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقى النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا فى ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة .وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل : وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها أن اكتبي لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ،فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ، وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية ، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة. والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم فى جمع ، أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن فى علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ماروي أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى . أوصنى . قال عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرءان فإنه نور لك فى أهل الأرض ،وذكر لك فى أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يابنى ، زاحم العلماء بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ،

---

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ـ الحديث : الترمذى والحاكم وفى مسند الترمذى من لم يسم

وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلاً ، وصم صوما يكسر شهوتك ، ولا تصم صوما يضر بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين وقال أيضا لابنه . يابنى ، لاتضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرب ، ولا تسأل عما لايعنيك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت يابنى ، إن من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم . وقال رجل لأبى حازم أوصنى .فقال كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه . وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه، وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصنى . فقال : كن بسّاما ولا تكن غضّابا . وكن نفّاعا ولا تكن ضرّارا : وانزع عن اللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك ياابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام أوصنى. فقال: اجتهد فى رضا خالقك بقدر ماتجتهد فى رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى .فقال: اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا مالابد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لابد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه .وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ،فخف مما خوفك الله ، واحذر مما حذرك الله ، وخذ مما فى يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه أما بعد ، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ،ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ،ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله :أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة، ولها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده . فكن فيها ياأمير المؤمنين كالمداوى جرحه ،يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .

وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم ، باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لايدرى خصوص واقعته . فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصى ، واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا ، وينشدون أبياتا ، ويتكلفون ذكر ماليس فى سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله

الأصل الثانى : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس

وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ، فلابد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى . كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة ، فصار لايقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه فى السعي وراء شهوته . فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لايتم إلا بصبر ،

ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكر فيه لتمام الفهم . وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب ، وصدّق بالحسنى ، فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسييسره الله للعسرى ، فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور . أحدها . أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالمخنق . وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [1]) وقال عز وجل (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [2]) وقد عبّر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَفَّهَا

---

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر اليها ـ الحديث : أبوداود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

---

(١) القيامة : ٢٠ (٢) الاعلى : ١٦

بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ » . فإذاً كون الشهوة مرهقة فى الحال، وكون العقاب متأخر إلى المآل، سببان ظاهران فى الاسترسال، مع حصول أصل الإيمان. فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذبا بأصل الطب ، ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث : أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان

الرابع : أنه مامن مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة إيجابا لايمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه ، وهو كونه شاكا فى صدق الرسل ، وهذا هو الكفر . كالذى يحذره الطبيب عن تناول مايضره فى المرض . فإن كان المحذر ممن لايعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالى به . فهذا هو الكفر

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ماهو آت آت ، وأن غدا للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال. إذ يركب البحار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الربح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف مابعده ، ومفارقته للدنيا لا بد منها . فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه ، فيقول . كيف يليق

بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندي ، دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبّه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض ، وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه، ويكلف نفسه تركها، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر، فكيف أطيق ألم النار! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة! . وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني الأمر على ماليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم. فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة؟ والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتياد . فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها. وعن هذا هلك المسوّفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوي الضعيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى، فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده ، وترك ذخائر أمواله في صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى داري ، أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكي في الأسمار أن مثل ذلك وقع ، فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظرُ أمر ممكن ، ولكنه في غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله

فيقال له : ماقاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لا وجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك فى البيت لحظة ، أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول أتركه لا محالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ماظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضا فيما يقول ! فليس فى العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثوابا وعقابا ، وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد . وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة : فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدّرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا ، وإلا فقد تخلصتُ وهلكتَ . أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لا سيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة

والثانى: أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله، ونفس من أنفاسه، شهوة قد تسلطت عليه واسترقته. فصار عقله مسخرا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده ، تألما بذكره ، مع استحقار ألم مواقعته. فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به !

وأما الثانى . وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهى مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا . فالنفس قابلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لجاجة

فإذاً هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع ، فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة . وقد روي فى حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبى طالب كرم الله وجهه : ياأمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُنى فقال عليّ رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل . ومقت العلماء . ومن عمي نسي الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد. ومن شك غرته الأمانى: فأخذته الحسرة والندامة، وبداله من الله مالم يكن يحتسب

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر . وهذا القدر فى التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة. فلابد من بيان الصبر، فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى

كتاب الصبر والشكر

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء، المنفرد برداء الكبرياء، المتوحد بصفات المجد والعلاء، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء، والشكر على البلاء والنعماء. والصلاة على محمد سيد الأنبياء، وعلى أصحابه سادة الأصفياء، وعلى آله قادة البررة الأتقياء، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء

أما بعد: فإن الإيمان نصفان. نصف صبر ونصف شكر، كما وردت به الآثار، وشهدت له الأخبار [1]. وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا. فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن. ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان. وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان، وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان. ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى.

الشطر الأول

فى الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حده وحقيقته، وبيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه. فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر)

(١) حديث الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر: أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف

بيـان

فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف ، وذكر الصبر فى القرءان فى نيف وسبعين موضعا . وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر ، وجعلها ثمرة له . فقال عزّ من قائل (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا [1]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [2]) وقال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [3]) وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [4]) وقال تعالى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [5]) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى : الصوم لى وأنا أجزى به . فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات . ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [6]) وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [7]) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [8]) فالهدى ، والرحمة ، والصلوات ، مجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار . فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » على ماسيأتى وجه كونه نصفا . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ وَلَأَنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ

---

(١) حديث الصبر نصف الايمان : أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم فى الصوم

(٢) حديث من أقل ماأوتيتم اليقين وعزيمة الصبر - الحديث بطوله تقدم فى العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله

---

(١) السجدة : ٢٤ (٢) الأعراف : ١٣٧ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٥٤ (٥) الزمر : ١٠ (٦) الانفال ٤٦

(٧) آل عمران: ١٢٥ (٨) البقرة : ١٥٧ .

وَلَكِنِّي أخَافُ أنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَيُنْكِرُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفِرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ » ثم قرأ قوله تعالى(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ [1])الآية

وروى [1] جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال أيضا [2] « الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » [3] وسئل مرة ما الإيمان ؟ فقال « الصَّبْرُ » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الْحَجُّ عَرَفَةُ » معناه معظم الحج عرفة . وقال أيضا صلى الله عليه وسلم [4] « أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ »

وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، تخلق بأخلاقى ، وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور . [5] وفى حديث عطاء عن ابن عباس ، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال « أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ » فسكتوا . فقال عمر نعم يارسول . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ » قالوا نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء . فقال صلى الله عليه وسلم « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال المسيح عليه السلام: إنكم لاتدركون ماتحبون إلا بصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [7] « لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلاً لَكَانَ كَرِيماً وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » والأخبار فى هذا لاتحصى

---

(١) حديث جابر سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة: الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبرانى فى الكبير من رواية عبد الله بن عبيد ابن عمير عن أبيه عن جده

(٢) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة :غريب لم أجده

(٣) حديث سئل مرة عن الايمان فقال الصبر :أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف

(٤) حديث الحج عرفة : تقدم فى الحج

(٥) حديث أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس :لاأصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس

(٦) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله الحديث : الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء

(٧) حديث فى الصبر على ماتكره خير كثير :الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٨) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما :الطبرانى من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى

(١) النحل : ٩٦

وأما الآثار ، فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر . واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر . وقال عليّ كرم الله وجهه : بني الإيمان على أربع دعائم اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له

وكان عمر رضي الله عنه يقول : نعم العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين .يعني بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى(وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [1])

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [2]) بكي وقال : واعجباه ! أعطى وأثنى. أي هو المعطي للصبر وهو المثني

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل . وأما من حيث النظر بعين الاعتبار ، فلا تفهم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه ، وبالله التوفيق :

بيان

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف هي الأصول ، وهي تورث الأحوال . والأحوال تثمر الأعمال . فالمعارف كالأشجار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل ، كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد . وكذلك الصبر ، لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وبحالة قائمة

(١) البقرة : ١٥٧ (٢) ص : ٤٤

فالصبر على التحقيق عبارة عنها . والعمل هو كالثمرة يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة ، والإنس ، والبهائم ، فإن الصبر خاصية الإنس . ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة . أما في البهائم فلنقصانها ، وأما في الملائكة فلكمالها

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام . فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم . ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم بني آدم ، ورفع درجتهم عن درجة البهائم ، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ، أحدهما يهديه ، والآخر يقويه . فتميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب . وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ، ولا هداية إلى مصلحة العواقب ، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط . فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه . فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه . فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ، ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها . وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة . فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى . وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد . كما أن نور

الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر . فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا . ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى

وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة ، فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها ، التحق باتباع الشياطين . فإذاً ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر. وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ، ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى ، قوى ثبات باعث الدين . وإذا قوى ثباته ، تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما . وهما من الكرام الكاتبين . وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسامله ، فهو إذاً صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران فى الغفلة والفكر ، وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن، فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه ، فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة . وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيآت بإثباتهما . فلذلك سميا كراما كاتبين . أما الكرام ، فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة . وأما الكاتبون ، فلإثباتهما الحسنات

والسيآت. وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب، ومطوية عن سر القلب ، حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما ، وكتبتهما ، وخطهما ، وصحائفهما ، وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت ، لامن عالم الشهادة . وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم . ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى . وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [1]) وفيها يقال (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [2]) أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق ، فلا يكون وحده . بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق . وفيها يساق المتقون إلى الجنة ، والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا ، فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها . بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه ، لا بزلزلة مسكن غيره . فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب . وحظك الخاص من التراب بدنك فقط . فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التى أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان . وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه . وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه . إذ ليس يتزلزل به بدنك . فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك . فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها . فإذا انفصلت

---

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته : ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف

(١) الانعام : ٩٤ (٢) الاسراء : ١٤

العظام من اللحوم ، فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فإذا رمت العظام ، فقد نسفت الجبال نسفا . فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا . فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا . فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا . فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك ، فقد عطلت العشار تعطيلا . فإذ فارقت الروح الجسد ، فقد حملت الأرض فمدت ، حتى ألقت مافيها وتخلت

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال . ولكني أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها . فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره . ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟

فهذه هى القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر . وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، وتمت الأهوال

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها ، فإنا لم نذكر عشر عشير أوصافها . وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . فإن للإنسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، وله فى سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ، من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى ، كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ [١])

فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، وموقن بالملك والملكوت : والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين . وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يامسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال . فإن كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال ، أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ماسمعت قول سيد الأنبياء [١] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » أوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » أوماتستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين ، الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون ؟ فياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن . أفيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ؟ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟ أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون ؟ كلا . إن كل لما جميع لدينا محضرون . ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وذلك لأنا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين . ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة فى الإعراض عنهما ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة ، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض

---

(١) حديث كفى بالموت واعظا : البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت : الترمذى وقال غريب والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت

---

(١) الواقعة : ٦١

وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمرى إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، رتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس . ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ماينشر فى الآخرة . بل على القيم العدل ، والولي البر الشفيق ، إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل ولي هذا سمته فى حق الصبي، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبي ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة ، فيكون مع النبيين ، والمقربين ، والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (١) « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

بيان

كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين، وتارة يخص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا . وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب . ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها ، كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر . والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين : البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين . إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة . ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث إلى آخره

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف . وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد إلى ماينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا . فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبتها إلى الإيمان . والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

بيان

الأسامى التى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع . ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج ، سمى عفة

وإن كان عن احتمال مكروه ، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرها . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ،ويضاده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هُوَ الصَّبْرُ » لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال [1] « الْحَجُّ عَرَفَةُ » وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ [1]) أى المصيبة ، (وَالضَّرَّاءِ [2]) أى الفقر ، (وَحِينَ الْبَأْسِ [3]) أى المحاربة (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [4])

فإذاً هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة . والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله ، يلحظ المعانى أولا ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول ، والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [5]) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

---

(١) حديث الحج عرفة : أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) البقرة : ١٧٧ (٥) الملك : ٢٢

بيان

أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها :أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة . ويتوصل إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال . من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون. فلا جرم هم الصديقون المقربون ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادي المنادى ياأيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة . وهؤلاء هم الغافلون .وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[١]) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ،فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[٢]) وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأماني ، وهو غاية الحمق . كما قال صلى الله عليه وسلم[١] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وصاحب هذه الحالة إذا وُعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت عليّ ، فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم ، فلا حاجة به إلى توبتي. وهذا المسكين قدصار عقله رقيقا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته . فقد صار

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه ـ الحديث : تقدم في ذم الغرور

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) النجم : ٢٩

عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار، فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير، وحفظ الخمور وحملها، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار، ويجعله أسيرا عندهم. لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه. وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين. وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه. فمهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة، للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى، كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعمَ عليه، فأخذ أعزّ أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه. فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته، وَاستيجابه لنقمته، لأن الهوى أبغض إلَهٍ عُبِدَ فى الأرض عند الله تعالى، والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها، وتارة لها عليه. وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين. وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، عسى الله أن يتوب عليهم. هذا باعتبار القوة والضعف

ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه. فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات، أو لا يغلب شيئا منها، أو يغلب بعضها دون بعض. وتنزيل قوله تعالى (خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً [1]) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام، بل هم أضل سبيلا. إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات. وهذا قد خلق ذلك له وعطله، فهو الناقص حقا، المدْبِر يقينا. ولذلك قيل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر. إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد، وتعب شديد، ويسمى ذلك تصبرا، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس، ويخص ذلك باسم الصبر. وإذا دامت التقوى، وقوى

---

(١) التوبة: ١٠٢

التصديق بما فى العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر . ولذلك قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [1])ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره . فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة ، بحيث لا يلقاه فى مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد ، وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى . فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت ، وتسلط باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتى فى كتاب الرضا . فالرضا أعلى من الصبر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « اعْبُدِ اللهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة ، وهذه درجة التائبين : وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين . وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ؛ كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص، وهو الصبر على المصائب والبلايا

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ، ونفل ،ومكروه،ومحرم.فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع . فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يخيل إليك أن جميعه محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة

---

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير : الترمذى من حديث ابن عباس وقد تقدم

---

(١) الليل : ٥

بيان

مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال

اعلم أن جميع مايلقى العبد فى هذه الحياة لايخلو من نوعين: أحدهما: هو الذى يوافق هواه، والآخر: هو الذى لايوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر فى كل واحد منهما. وهو فى جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين، أو عن كليهما. فهو إذاً لا يستغنى قط عن الصبر

النوع الأول: مايوافق الهوى، وهو الصحة، والسلامة، والمال، والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار. وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور. فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها، والانهماك فى ملاذها المباحة منها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان. فإن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى. حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافى لا يصبر عليها إلا صديق.

وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء. ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا. ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال، والزوج، والولد، فقال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ [1]) وقال عز وجل (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] «الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ» [2] ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال «صَدَقَ اللهُ»، (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [3])، إِنِّى لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِى يَتَعَثَّرُ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِى أَنْ أَخَذْتُهُ» ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب. وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم، واللذة، واللهو، واللعب. وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالإنفاق

---

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة: أبو يعلى الموصلى من حديث أبى سعيد وتقدم

(٢) حديث لما نظر الى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر ـ الحديث: أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسين والحسين وقال الترمذى حسن غريب

---

(١) المنافقين: ٩ (٢) التغابن ١٤ (٣) التغابن: ١٥

وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق . وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى . وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة . ومن العصمة أن لا تقدر . والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك، أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك . والجائع عند غيبة الطعام، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها . فلهذا عظمت فتنة السراء

النوع الثانى : مالا يوافق الهوى والطبع . وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد ، كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره ، كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته ، كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصيــــــة . وهما ضربان .

الضرب الأول : الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها . فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهى الربوبية . ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [1]) ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده ، وخادمه ، وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره . فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته ، واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ، ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء ، فإذاً العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال .

الأولى . قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية ، والإخلاص ، وآفات الرياء ، ومكايد النفس وقد نبه عليه ، صلوات الله عليه إذ قال [2] « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » وقال تعالى

---

(١) حديث انما الاعمال بالنيات : متفق عليه من حديث عمر . وقد تقدم

(١) النازعات : ٣٢

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (١)) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٢))

الحالة الثانية : حالة العمل ، كي لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير . فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ . وهذا أيضا من شدائد الصبر . ولعله المراد بقوله تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا (٣)) أى صبروا إلى تمام العمل

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء . والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره . كما قال تعالى (وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٤)) وكما قال تعالى (لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى (٥)) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل . وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعها الله تعالى فى قوله (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى (٦)) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر

الضرب الثانى المعاصى ، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ (٧)) وقال صلى الله عليه وسلم (١) « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ » والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة . فإن العادة طبيعة خامسة . فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها . ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس . كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى

---

(١) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه : ابن ماجه بالشطر الأول والنسائى فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدما

(١) البينة : ٥ (٢) هود : ١١ (٣) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ (٤) محمد : ٣٣ (٥) البقرة : ٢٦٤ (٦ ، ٧) النحل : ٩٠

يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ، والقدح فيهم، وفي علومهم، وسيرهم، ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة ، وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان . إحداهما نفي الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين ، وتيسر تحريك اللسان، ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات ، حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها ، وعموم الأنس بها . فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ماورد في الخبر [1] من أن الغيبة أشد من الزنا . ومن لم يملك لسانه في المحاورات ، ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره . فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة . وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس . فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه . كمن أصبح وهمومه هم واحد، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه

القسم الثاني : مالا يرتبط هجومه باختياره ، وله اختيار في دفعه ، كما لو أوذي بفعل أو قول، وجني عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا ، وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم . ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [1]) [2] وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين . هذه قسمة ما أريد به وجه الله . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاحمرت وجنتاه ثم قال « يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » وقال تعالى (وَدَعْ أَذَاهُمْ

(١) حديث ان الغيبة أشد من الزنا : تقدم في آفات اللسان

(٢) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الاعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(١) ابراهيم : ١٢

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ [١]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً [٢]) وقال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ [٣]) الآية، وقال تعالى (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [٤]) أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره ، فقال تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ [٥])

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ورأيت فى الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف . وأنا أقول لكم . لاتقاوموا الشر بالشر . بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر . ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك . ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا

القسم الثالث : مالايدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره كالمصائب . مثل موت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر فى القرءان على ثلاثة أوجه . صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهى من الفرائض ، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا » فهذا صبر مستنده حسن اليقين

---

(١) حديث صل من قطعك ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا : الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات

---

(١) الاحزاب : ٤٨ (٢) المزمل : ١٠ (٣) : الحجر ٩٧ (٤) آل عمران : ١٨٦ (٥) النحل : ١٢٦

وقال أبو سليمان . والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ! وقال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصُبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى » (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [١]) « اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ » . وقال أنس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] أن الله عز وجل قال . « يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سُلِبَتْ كَرِيمَتَيْهِ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي » .

---

(١) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث : ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة : القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات

(٣) حديث ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث : مسلم من حديث أم سلمة

(٤) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه - الحديث : الطبراني في الأوسط من رواية أبي ظلال القسملي واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخاري بلفظ ان الله عز وجل قال اذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة ورواه ابن عدي وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت كريمتي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يا رسول الله وان كانت واحدة قال وان كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدي ضعيف

(٥) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه - الحديث : مالك في الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقي موقوفا على أبي هريرة

---

(١) البقرة : ١٥٦

وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته . ماأنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه . وقرأ (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [١])

وسئل فضيل عن الصبر فقال . هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضي لايتمنى فوق منزلته . وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم ؟ قالوا أحباؤك جاؤك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجارة . فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا [٢])

ويقال إن امرأة فتح الموصلي عثرت ، فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [١] « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » . ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفي كمه صرة ، فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه . فقال بارك الله له فيها ، لعله أحوج إليها مني . وروي عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق . فقلت له أسقيك ماء ، فقال . جرّني قليلا إلى العدو ، واجعل الماء في الترس ، فإني صائم ، فإن عشت إلى الليل شربته ، فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى . فإن قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب ، وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لاتكون في نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ،

---

(١) حديث من اجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك : لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لاتتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك

---

(١) الزمر : ١٠ (٢) الطور : ٤٨

وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة فى الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة فى الملبس ، والمفرش ،والمطعم. وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغي أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاءالله تعالى ، ويبقى مستمراعلى عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، كما روي (١) عن الرميصاء أم سليم رحمهاالله أنهاقالت توفى ابن لى ، وزوجى أبو طلحة غائب . فقمت فسجّيته فى ناحية البيت . فقدم أبو طلحة . فقمت فهيأت له إفطاره ، فجعل يأكل . فقال كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه،فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة .ثم تصنعتُ له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت . ألاتعجب من جيراننا ؟ قال مالهم ؟ قلت أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ! فقال بئس ماصنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . فحمد الله واسترجع .ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال . « اللهمَّ بَارِكْ لَهُمَا فِي لَيْلَتِهِمَا » قال الراوى . فلقد رأيت لهم بعد ذلك فى المسجد سبعة ، كلهم قد قرءوا القرءان ،وروى جابر أنه عليه السلام قال «رأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ »وقد قيل . الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره . ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضي البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت .ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال « إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا . فالمقدم على الحجامة والفصد راض به ، وهو متألم بسببه لامحالة ، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه . وسيأتى ذلك فى كتاب الرضا إن شاء الله تعالى، وكتب ابن أبي نجيح يعزى بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه ، من عظّم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له

واعلم أن الماضي قبلك هو الباقى لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه . فإذاً مهما دفع الكراهة

---

(١) حديث الرميصاء أم سليم توفى ابن لى وزوجى أبو طلحة غائب فقمت فسجيته فى ناحية البيت ـ الحديث: طب ومن طريقه ابو نعيم فى الحلية والقصة فى الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

بالتفكر فى نعمة الله تعالى عليه بالثواب ، نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض، والفقر، وسائر المصائب . وقد قيل . من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام فى جميع الأحوال والأفعال. فإن الذى كُفي الشهوات كلها ، واعتزل وحده ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون فى فائت لا تدارك له ، أو فى مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه ، وبضاعته عمره . فإذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى ، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون . هذا إن كان فكره ووسواسه فى المباحات مقصورا عليه. ولا يكون ذلك غالبا . بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه فى جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه . بل يقدر المخالفة من أخلص الناس فى حبه، حتى فى أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ، ثم يتفكر فى كيفية زجرهم وكيفية قهرهم ، وجوابهم ، عما يتعللون به فى مخالفته . ولا يزال فى شغل دائم ، فللشيطان جندان. جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار . والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة. فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك . بل لا تزال تتحرك بطبعها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ، ساجدا لما خلق الله من الطين ، فأبى واستكبر واستعصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . فإذاً حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه ، فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه، فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان سجود منه . فهو روح السجود . وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه ، وعلامته الدالة عليه

بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح ، لتصور ذلك . كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة .

فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر ، وقالب الروح عن الروح ،وقشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين ، إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ؛ فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك. فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين ، الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ . بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم. وسيلانه مثل الهواء فى القدح . فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره ، فقد طمعت فى غير مطمع . بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة . فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين، يخلو عن جولان الشيطان . وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة ، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْغَضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ »وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغا ، ولم يبق قلبه فارغا . بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ . ثم تزدوج أفراخه أيضا ، وتبيض مرة أخرى وتفرخ . وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات ، لأن طبعه من النار . وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ، ولا تنقطع ألبتة . بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار، وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب ، فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة

فإذاً إذا تأملت ، علمت أن أعدى عدوك شهوتك ، وهى صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج، حين كان يصلب ، وقد سئل عن التصوف ما هو فقال : هي نفسك

(١) حديث إن الله يبغض الشاب الفارغ : لم أجده

(١) الزخرف : ٣٦

إن لم تشغلها شغلتك . فإذاً حقيقة الصبر وكماله الصبرُ عن كل حركة مذمومة .وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك .وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت،نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان

دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء .فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعا ، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها . ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر . وكما أن أقسام الصبر مختلفة ،فأقسام العلل المانعة منه مختلفة . وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج . إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ، ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا ، وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ،فنقول . قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى . وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر .فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . فلابد من قطعها بالصوم الدائم ، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل فى نفسه ، ضعيف فى جنسه . فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة

الثانى : قطع أسبابه المهيجة فى الحال . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة . إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . وهذا يحصل بالعزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ » وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلاّ تغميض الأجفان ، أو الهرب من صوب رميه . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور . فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه . وذلك بالنكاح فإن كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر . فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ » ، فهذه ثلاثة أسباب. فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح ، وعن الكلب الضارى ، ليضعف فتسقط قوته. والثانى يضاهى تغييب اللحم عن الكلب ، وتغييب الشعير عن البهيمة ، حتى لاتتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل إليه طبعها ، حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين ، فإنما تكون بطريقين :

أحدهما : إطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر ، وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة وفى الأثر أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالا يبقى معه إلا مدة الحياة ، وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا فى نفيس ، فلاينبغى أن يحزن لفوات الخسيس فى الحال. وهذا من باب المعارف ، وهو من الإيمان. فتارة يضعف ، وتارة يقوى . فإن قوي قوي باعث الدين ، وهيجه تهييجا شديدا . وإن ضعف ضعّفه ، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعزيمة الصبر . وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا ، قليلا قليلا ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجرىء عليها ، وتقوى منته فى مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس : تقدم غير مرة

(٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم ـ الحديث : تقدم فى النكاح

الشاقة ، تؤكد القوى التى تصدر منها تلك الأعمال . ولذلك تزيد قوة الحمالين ، والفلاحين والمقاتلين . وبالجملة فقوة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين ، والعطارين ، والفقهاء ، والصالحين . وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة

فالعلاج الأول يضاهى إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ، ووعده بأنواع الكرامة ، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال (وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[1]) والثانى يضاهى تعويد الصبي الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة ، بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ، ويستجرىء عليه ، وتقوى فيه منته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين . ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت . ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد

فهذا منهاج العلاج فى جميع أنواع الصبر . ولا يمكن استيفاؤه . وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس . وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له ، بأن قمع الشهوات الظاهرة ، وآثر العزلة ، وجلس للمراقبة والذكر والفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا ، بالفرار عن الأهل ، والولد ، والمال ، والجاه ، والرفقاء ، والأصدقاء . ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت ، وبعد القناعة به . ثم كل ذلك لا يكفى ما لم تصر الهموم هما واحدا ، وهو الله تعالى . ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفى ذلك ما لم يكن له مجال فى الفكر ، وسير بالباطن فى ملكوت السموات والأرض ، وعجائب صنع الله تعالى ، وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه . وإن لم يكن له سير بالباطن ، فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة فى كل لحظة من القراءة ، والأذكار ، والصلوات . ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور . فإن الفكر بالباطن هو الذى يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة . ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو فى جميع أوقاته عن حوادث تتجدد ، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض ، وخوف ، وإيذاء من إنسان ، وطغيان من مخالط ، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة ، فهذا أحد الأنواع الشاغلة

---

(١) الشعراء : ٤٢

وأماالنوع الثاني : فهو ضروري أشد ضرورة من الأول ،وهو أشتغاله بالمطعم،والملبس، وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل ، إن تولاه بنفسه، وإن تولاه غيره فلايخلوعن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملمة أو واقعة . وفي تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ؛ وينكشف فيه من أسرار الله تعالى ،في ملكوت السموات والأرض ،مالا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل ، لوكان مشغول القلب بالعلائق . والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد

فأما مقادير ماينكشف . ومبالغ مايرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال، فذلك يجري مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويجل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ . والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لاينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية ، إذ قال الله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [1])وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا ، فلا ندري متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض ، وينقيها من الحشيش ، ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لاينفعه إلا بمطر . ولا يدري متى يقدر الله أسباب المطر ،إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لايخلي سنة عن مطر . فكذلك قلما تخلو سنة ،وشهر،ويوم ،عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات

فينبغي أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة . كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع ، وعند ظهور الغيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم

---

(١) الذاريات : ٢٢

وتساعد القلوب ، كما فى يوم عرفة . ويوم الجمعة . وأيام رمضان . فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ،حتى تستدر بها الأمطار فى أوقات الاستسقاء وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء ، واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار . بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك فى قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا فى القلب ، ومنسيا بالشغل عنه ، سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا فقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [١]) وقال تعالى (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٢]) وقال تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [٣]) فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله . السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن ، وهجران الخلق فى حب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق . وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ، فإن لذة الرياسة ، والغلبة ، والاستعلاء ، والاستتباع ، أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء . وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [٤])

وليس القلب مذموما على حبه ذلك ، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين ، المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه . وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ! فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالا لا نقصان فيه ، وهذه كلها من أوصاف الربوبية

(١) الحجر : ٩ (٢) ابراهيم : ٥٢ (٣) القمر : ١٧ و (٤) الاسراء : ٨٥

وليس مذموما على طلب ذلك . بل حق كل عبد أن يطلب مُلكا عظيما لا آخر له : وطالب الملك طالب للعلوّ ، والعز ، والكمال لامحالة . ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو فى الدنيا ، وملك مخلد دائم ، لايشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل . وقد خلق الإنسان عجولا راغبا فى العاجلة . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التى فى طبعه ، فاستغواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحمق ، فوعده بالغرور فى الآخرة ، ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ » فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة . فعبّر عن المخذولين بقوله تعالى (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [1]) وقال تعالى (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا [2]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [3])

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق ، أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيق عن الملك المجازى ، الذى لاأصل له إن سلم ، ولادوام له أصلا ، فنادوا فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [4])

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وصحف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ، ماأنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد . والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ، ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاءً لافناء فيه ، وعزا لاذل فيه ، وقرة عين أخفيت فى هذا العالم ، لاتعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا ، لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به . إذ الدنيا والآخرة ضرتان . ولعلمه بأن الدنيا لاتسلم له أيضا

---

(1) القيامة : ٢٠ (2) الدهر : ٢٧ (3) النجم : ٢٩ ، ٣٠ (4) التوبة

ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا . ولكن ملك الدنيا لايخلو عن المنازعات والمكدرات ، وطول الهموم في التدبيرات . وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتم الأسباب ينقضي العمر (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ [1]) فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [2]) . والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا ، حسده الشيطان عليه ، فصده عنه . ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق . إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة ، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا ، منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف اطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك ؟ قال أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلي . فهذا إذا هو الملك في الدنيا . وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا . والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط في ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه ، يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته . إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة . ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ، بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع

---

[1] يونس : ٢٤ [2] الكهف : ٤٥

الأسباب . كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض ، إذ قال تعالى .(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1])

الثاني : أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده . فيبدل التكلف بالتبذل ، وزى الحشمة بزى التواضع . وكذلك كل هيئة ، وحال ، وفعل ، فى مسكن ، وملبس ، ومطعم ، وقيام ، وقعود كان يعتاده ، وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدلها بنقائضها ، حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى المعالجة إلا المضادة

الثالث : أن يراعي فى ذلك التلطف والتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض . ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا ، إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [2] « لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادَّهِ يَغْلِبْهُ »

فإذاً ماذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس ، وعن الشهوة ، وعن الجاه ، أضفه إلى ماذكرناه من قوانين طرق المجاهدة فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الأقسام التى فصلناها من قبل . فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترق به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه ، كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا ، وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق . وله نظير فى العادات فإن الصبي يحمل على التعلم فى الابتداء قهرا ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم ،

---

(١) حديث ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ـ الحديث : أحمد من حديث أنس والبيهق من حديث جابر وتقدم فى الاوراد

(٢) حديث لاتشادوا هذا الدين فانه من شاده يغلبه : تقدم فيه

---

(١) النساء : ٩٧

والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ماحكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلى عن الصبر ،أيه أشد ؟ فقال : الصبر فى الله تعالى . فقال لا . فقال الصبر لله . فقال لا .فقال الصبر مع الله . فقال لا . فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل فى معنى قوله تعالى(اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [١]) اصبروا فى الله وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه

والصبر عنك فذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

الشطر الثانى

من الكتاب فى الشكر وله ثلاثة أركان

الأول : فى فضيلة الشكر وحقيقته ، وأقسامه وأحكامه . الثانى : فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : فى بيان الأفضل من الشكر والصبر

الركن الأول

فى نفس الشكر

بيان

فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ [٢]) فقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ [٣]) وقال الله تعالى (مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ [٤]) وقال تعالى (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ [٥])

(١) آل عمران : ٢٠٠ (٢) العنكبوت : ٤٥ (٣) البقرة : ١٥٢ (٤) النساء : ١٤٧ (٥) آل عمران : ١٤٥

وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [١]) قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر ، طعن اللعين في الخلق فقال (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [٢]) وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [٣]) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [٤]) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة فقال تعالى (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ [٥]) وقال (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ [٦]) وقال (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٧]) وقال (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [٨]) وقال (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ [٩]) وهو خلق من أخلاق الربوبية ، إذ قال تعالى (وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ [١٠]) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ [١١]) وقال (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٢]) . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ »

وروي عن [٢] عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجبا ؟ أتاني ليلة فدخل معي في فراشي ، أو قالت في لحافي ، حتى مس جلدي جلده ، ثم قال « يَا ابْنَةَ أَبِي بَكْرٍ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي » قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك . فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى سالت

---

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنه وفي اسناده اختلاف

(٢) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجبا ـ الحديث : في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر ـ الحديث :

---

(١) الأعراف : ١٦ (٢) الأعراف : ١٧ (٣) سبأ : ١٣ (٤) ابراهيم : ٧ (٥) التوبة : ٢٨ (٦) الأنعام : ٤١
(٧) البقرة : ٢١٢ (٨) النساء : ٤٨ (٩) التوبة : ١٥ (١٠) التغابن : ١٧ (١١) الزمر : ٧٤ (١٢) يونس : ١٠

دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة . فقلت يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُورًا وَلِمَ لاَأَفْعَلُ ذَلِكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ » (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ [١]) الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لاينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير ، فتعجب منه . فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [٢]) فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار ، فأجاره ، ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك .فقال لم تبكي الآن ؟ فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة .ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَقُمِ الْحَمَّادُونَ فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنْصَبُ لَهُمْ لِوَاءٌ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » قيل ومن الحمادون ؟ قال « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمٰنِ » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ، في كلام طويل . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : إن دارهم دار السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، بالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز مانزل قال عمر رضى الله عنه : أي المال نتخذ؟ فقال عليه السلام [٣] « لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَاكِرًا وَقَلْبًا شَاكِرًا » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال. وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان

---

(١) حديث ينادي يوم القيامة ليقم الحمادون ـ الحديث: الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى الى الجنة الحمادون ـ الحديث : وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور

(٢) حديث الحمد رداء الرحمن : لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة الكبر رداؤه ـ الحديث: وتقدم في العلم

(٣) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا ـ الحديث : تقدم في النكاح

---

(١) البقرة : ١٧٤ (٢) البقرة : ٢٤

بيان

حد الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين . وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال . والحال يورث العمل . فأما العلم ، فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان .ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فإن كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه

فالأصل الأول :العلم . وهو علم بثلاثة أمور . بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ، ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ، ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لابد من نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة . فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى. فأما فى حق الله تعالى، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله ، وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته . وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس . إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة ، فيعرف أنه لامقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس ، وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل مافى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (١) « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ » وقال (٣) « لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَذْكَارِ يُضَاعِفُ مَا يُضَاعِفُ الْحَمْدُ لِلّٰهِ »

---

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

(٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله :الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر

(٣) حديث ليس شئ من الأذكار يضاعف مايضعف الحمد لله :لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال ان الحمد أكثر الكلام تضعيفا

ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات، من غير حصول معانيها في القلب. فسبحان الله كلمة تدل على التقديس. ولا إله إلا الله، كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال . فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وإيصاله إليه ، فهو إشراك به فى النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه . بل منه بوجه ، ومن غيره بوجه : فيتوزع فرحه عليهما ، فلا يكون موحدا فى حق الملك . نعم لا ينقص من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه ، وبالكاغد الذى كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما ، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ، ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته ، لما سلم إليه شيئا . فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل ، ، كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من إضافة النعمة إلى الملك . وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله ، علم أن الشمس ، والقمر، والنجوم مسخرات بأمره ، كالقلم مثل فى يد الكاتب . وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها . فإن الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت. كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده . فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده ، فهو مضطر ، إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى ، وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك : وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد ، لا يجد سبيلا إلى تركه . فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك . ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك . ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك. فهو إذاً إنما يطلب نفع نفسه بنفعك ، فليس منعما عليك . بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك ، وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات

ماصار به مضطرا إلى الإيصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك ، فقدعرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا ، وقدرت على شكره . بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا . ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل . اعلم أن كل ذلك منى ، فكانت معرفته شكرا . فإذاً لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه . فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده ، بل وبغيره . فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل

الأصل الثانى :الحال. المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر . ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاوياشرطه،وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول . الملك الذى يريد الخروج إلى سفر، فأنعم بفرس على إنسان ، يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه .

أحدها :أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لاحظ له فى الملك ، بل غرضه الفرس فقط . ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح

الوجه الثانى: أن يفرح به لامن حيث أنه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به ، وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه - حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء ، أوأعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائه عن الفرس أصلا ، أواستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك . الوجه الثالث :أن يفرح به ليركبه ، ليخرج فى خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقى إلى درجة الوزارة ، من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ، ويعتنى به هذا القدر من العناية . بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ثم أنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة ، وبين الوزارة دون القرب ، لاختار القرب .

فهذه ثلاث درجات . فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، ففرحه بالفرس لا بالمعطى . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه ، فهو بعيد عن معنى الشكر . والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، ولكن لا من حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل . وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه، خوفا من عقابه ، ورجاءً لثوابه . وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث : وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى ، والنزول فى جواره ، والنظر إلى وجهه على الدوام . فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ، ويعينه عليها . ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج ؛ بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه . ولذلك قال الشبلى رحمه الله . الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب

وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن ، والفرج ، ومدركات الحواس من الألوان والأصوات ، وخلا عن لذة القلب . فإن القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى . ومعرفته ، ولقائه . وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة، ويستحلى الأشياء المرة، كما قيل

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

فإذاً هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى . فإن لم تكن إبل فمعزى . فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب . فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ، ومن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه

الأصل الثالث :العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب ، وباللسان . وبالجوارح . أما بالقلب ، فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح ، فاستعمال نعم الله تعالى فى

طاعته ، والتوقى من الاستعانة بها على معصيته . حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم . وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه . فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء . والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى ، وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم (١) لرجل « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قال بخير . فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره . فقال صلى الله عليه وسلم « هَذَا الَّذِى أَرَدْتُ مِنْكَ »

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ، ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا . وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر ، أو يشكو ، أو يسكت . فالشكر طاعة . والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين . وكيف لاتقبح الشكوى من ملك الملوك ، وبيده كل شيء ، إلى عبد مملوك لايقدر على شيء ! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء ، وأفضى به الضعف إلى الشكوى ، أن تكون شكواه إلى الله تعالى . فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز . والشكوى إلى غيره ذل . وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ (١)) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ (٢)) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر . الكبر الكبر . فقال ياأمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك . فقال تكلم . فقال . لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة ، فقد أوصلها إلينا فضلك . وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك . وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معانى الشكر ،

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك : الطبرانى فى الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال فى الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه فى المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك فى الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح

(١) العنكبوت ١٧ . (٢) الاعراف : ١٩٤ .

المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال ، إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معاني الشكر ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا إشارة الى أن المعرفة من معاني الشكر فقط . وقول الجنيدي . الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص . وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق . ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم . أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه . فلا ينبغي أن تظن أن ماذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها . بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا ، إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ ، في أن إسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا ، وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه . ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته

بيان

طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر . فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ، ويظهر كرمهم عند الناس ، فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم . أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم ، وذلك تكثير سوادهم ، وسبب لزيادة جاههم . فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك . وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين . أحدهما : أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين

يديه ركعا سجدا . فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه ، يضاهى شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام فى بيوتنا ،أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ، ولاحظ لله تعالى فى أفعالنا كلها . الوجه الثانى : أن كل ماتتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا . إذ جوارحنا ، وقدرتنا ، وإرادتنا ، وداعيتنا ،وسائر الأمور التى هى أسباب حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته . فكيف نشكر نعمة بنعمة ! ولو أعطانا الملك مركوبا ،فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه ،أو أعطانا الملك مركوبا آخر ، لم يكن الثانى شكرا للأول منا ، بل كان الثانى يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لايمكن شكرا لشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا فى حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك فى الأمرين جميعا . والشرع قد ورد به . فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام ، فقال : يارب كيف أشكرك ؟ وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفى لفظ آخر . وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى . وفى خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة منى رضيت منك بذلك شكرا . فإن قلت : فقد فهمت السؤال ، وفهمى قاصر عن إدراك معنى ماأوحي إليهم ، فإنى أعلم استحالة الشكر لله تعالى . فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه . فإن هذا العلم أيضا نعمة منه . فكيف صار شكرا ؟ وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر . وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكرا للخلعة الأولى . والفهم قاصر عن درك السر فيه .فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم فى نفسه . فاعلم : أن هذا قرع باب من المعارف، وهي أعلى من علوم المعاملة . ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول . ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر ، وأنه المشكور ،وأنه المحب ، وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس فى الوجود غيره ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ،وأن ذلك صدق فى كل حال أزلا وأبدا . لأن الغير هو الذى يتصور أن يكون له بنفسه قوام. ومثل هذا الغير لاوجود له ، بل هو محال أن يوجد . إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود ، بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره . فإن

اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود ألبتة . وإنما الموجود هو القائم بنفسه .
والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقي موجودا . فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم . ولا قيوم إلا واحد . ولا يتصور أن يكون غير ذلك فإذاً ليس فى الوجود غير الحي القيوم ، وهو الواحد الصمد . فإذا نظرت من هذا المقام ، عرفت أن الكل منه مصدره ، وإليه مرجعه . فهو الشاكر ،وهو المشكور. وهو المحب وهو المحبوب . ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قال (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[1]) فقال . واعجبـاه ! أعطى وأثنى. إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى . فهو المثنى وهو المثنى عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرىء بين يديه (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[2]) فقال : لعمرى يحبهم ، ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب . وهذه رتبة عالية لاتفهمها إلا بمثال على حد عقلك . فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه ، فقدأحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته ، فقد أحب نفسه . والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده ، فقد أحب نفسه . وكل مافى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته . فإن أحبه فما أحب إلا نفسه . وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ماأحب . وهذا كله نظر بعين التوحيد . وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس . أي فني عن نفسه وعن غير الله ، فلم ير إلا الله تعالى . فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول . كيف فني وطول ظله أربعة أذرع! ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ؟ فيضحك عليهم الجهال ، لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين .وإليه الإشارة بقوله تعالى(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ[3]) ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذقال تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[4]) وكذلك أمة نوح عليه السلام ، كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[5])

(١) ص : ٤٤ (٢) المائدة : ٥٤ (٣ ، ٤) المطففين : ٢٩ ، ٣٥ (٥) هود : ٣٨

فهذا أحد النظرين. النظر الثانى: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه. وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد. وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين، لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا، وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت، وكل قائم فقائم به. ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم. ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لاثبات لهم، ولا وجود لهم. وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا. وفرق بين الموجود وبين الموجد. وليس فى الوجود إلا موجود واحد، وموجد. فالموجود حق، والموجد باطل من حيث هو هو. والموجود قائم وقيوم، والموجد هالك وفان. وإذا كان (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [1]) فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثانى: ليس بهم عمى، ولكن بهم عور. لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق، فلا ينكرونه. والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق. فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى. وهذا مشرك تحقيقا، كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا. فإن جاوز حد العمى إلى العمش، أدرك تفاوتا بين الموجودين، فأثبت عبدا وربا. فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر داخل فى حد التوحيد. ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه. وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى. فإن بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو، فينمحى عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله. فيكون قد بلغ كمال التوحيد. وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد. وبينهما درجات لا تحصى. فبهذا تتفاوت درجات الموحدين. وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار. والأنبياء هم الكحالون. وقد جاؤا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول لا إله إلا الله. ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق. والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون. والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد. إذ عبدة الأوثان قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [2]) فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا. والمتوسطون

(1) الرحمن: ٢٦ (2) الزمر: ٣

هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال،فتلوح له حقائق التوحيد،ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت،وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا،ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب ، فقيل له (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [1]) [1] قال فى سجوده « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط .فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات ، فقال « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد ، فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفه ، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ، ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه ، إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ »فقوله صلى الله عليه وسلم « لا أُحْصِي » خبر عن فناء نفسه ، وخروج عن مشاهدتها . وقوله « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » بيان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ،وأن « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [2] » فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين ، وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل . فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة الى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية . فكان يستغفر الله من الأولى . ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه

---

(١) حديث قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ـ الحديث .

---

(١) العلق : ١٩ (٢) القصص :٨٨

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [(١)] «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً » فكأن ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما ، بعضها فوق البعض ، أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها . فكان استغفاره لذلك [(٢)] ولما قالت عائشة رضي الله عنها ، أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال « أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » معناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [(١)]﴾ . وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه . ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة ، وعقبات شديدة . وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات . وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر ، فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر ، والشاكر ، والمشكور . ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول . يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبا ، وملبوسا ، ونقدا ، لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ، ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان . إحداهما : أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ، ويكون له عناية في خدمته ، والثانية : أن لا يكون للملك حظ في العبد ، ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه ، لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء . وغيبته لا تنقص من ملكه . فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد ، أن يحظى العبد بالقرب منه ، وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه ، لا لينتفع الملك به وبانتفاعه . فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى . فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال

---

(١) حديث انه ليغان على قلبي ـ الحديث : تقدم في التوبة وقبله في الدعوات

(٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء ـ الحديث : رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة

---

(١) ابراهيم : ٧

ثم اعلم أن العبد لايكون شاكراً فى الحالة الأولى . بمجرد الركوب والوصول إلي حضرته ، مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه . وأما فى الحالة الثانية : فلا يحتاج إلى الخدمة أصلا . ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكرا وكافرا . ويكون شكره بأن يستعمل ماأنفذه اليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه . وكفره أن لايستعمل ذلك فيه ، بأن يعطله ، أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه ، فمهما لبث العبد الثوب ،وركب الفرس ،ولم ينفق الزاد إلا فى الطريق ، فقد شكره مولاه ، إذ استعمل نعمته فى محبته ، أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه . وإن ركبه واستدبر حضرته ، وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته ، أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لالنفسه . وإن جلس ولم يركب ، لافى طلب القرب ولا فى طلب البعد ، فقد كفر أيضا نعمته ، إذ أهملها وعطلها ، وإن كان هذا دون مالو بعد منه.فكذلك خاق الله سبحانه الخلق ، وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات ، لتكمل بها أبدانهم ، فيبعدون بها عن حضرته ،وإنما سعادتهم فى القرب منه . فأعدّ لهم من النعم مايقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب ، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [1]) الآية

فإذاً نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين ، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب ، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد ، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة ، فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه ، وبين أن يستعملها فى معصيته ،فقد كفر لاقتحامه مايكرهه مولاه ولا يرضاه له . فإن الله لايرضى لعباده الكفر والمعصية ،وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية ، فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع ، وكل ماخلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ، ونيل القرب من الله تعالى ،فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة ، وكل كسلان ترك الاستعمال ، أو عاص استعملها فى طريق البعد ، فهو ،كافر جار فى غير محبة الله تعالى ،فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ، ولكن لاتشملهما المحبة والكراهة ، بل رب مراد محبوب ، ورب مراد مكروه ، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه ، وقد انحل بهذا

(١) التين : ٤ ، ٥ ، ٦

الإشكال الأول . وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .

وبهذا أيضا ينحل الثانى . فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله . فإذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله ، فقد حصل المراد . وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك . فهو الذى أعطى ، وهو الذى أثنى . وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته . فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر ، بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنك موجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم ، لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك . فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية إليك ، وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئا . وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظانا لنفسك شيئا من ذاتك . فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء أشياء ، فأنت شيء إذ جعلك شيئا . فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقا . وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال [1] « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » لما قيل له : يارسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟

فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى . ومحل أفعاله ، وإن كانوا هم ايضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعملوا » وإن كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو فعل من أفعاله . وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى . والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة . وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى . وهو سبب لحركة الأعضاء ، وهى أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض . أى الأول شرط للثانى ، كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض ، إذ لا يخلق العرض قبله . وخلق الحياة شرط لخلق العلم . وخلق العلم شرط لخلق الإرادة . والكل من أفعال الله تعالى ، وبعضها سبب للبعض . أى هو شرط ومعنى كونه شرطا أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ، ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم . فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى ، لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره ، بل ممهد شرط الحصول لغيره . وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له : متفق عليه من حديث على وعمران بن حصين

فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم ؟ وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا . والاعتقاد سبب لهيجان الخوف . وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور . وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها . فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب ، حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة . ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له . ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع لم يعلم . وإذا لم يعلم لم يخف . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا . وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب ، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل ، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه . فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا . ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ، ولا قادر إلا الملك الجبار . وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك ، سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ)[1] ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم ، لا ذلك اليوم على الخصوص . ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم . فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا ينفعهم الكشف . فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك

بيان

تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه . إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال

(١) غافر : ١٦

أو باستعمالها فى مكارهه . ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان . أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات والأخبار ، والثانى : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار . وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز . فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ، وسهل بهم الطريق على الخلق . ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد . فمن لايطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا .

وأما الثانى : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه . إذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا ، والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس ، لاكل الحكم فيها . بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ، ومرعى للأنعام . وقد انطوى القرءان على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا[1]) الآية

وأما الحكمة فى سائر الكواكب ، السيارة منها والثوابت ، فخفية لايطلع عليها كافة الخلق . والقدر الذى يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ، لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ[2]) . فجميع أجزاء العالم ، سماؤه وكواكبه ، ورياحه ، وبحاره ، وجباله ، ومعادنه ، ونباته ، وحيواناته ، وأعضاء حيواناته لاتخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة ، إلى عشرة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى مايعرف حكمتها ، كالعلم بأن العين للإبصار لاللبطش ، واليد للبطش لا للمشى ، والرجل للمشى لاللشم . فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء ، والمرارة والكبد ، والكلية ، وآحاد العروق ، والأعصاب ، والعضلات ، وما فيها من التجاويف ، والالتفاف ، والاشتباك ، والانحراف ، والدقة ، والغلظ ، وسائر الصفات ، فلا يعرف

(١) عبس : من ٢٥ إلى ٢٨ (٢) الصفات : ٦

الحكمة فيها سائر الناس . والذين يعرفونها لايعرفون منها إلاقدرا يسيرا بالإضافة إلى مافى علم الله تعالى(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً [1]) . فإذاً كل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ، ولا على الوجه الذى أريد به ، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده ، فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه مايهلكه ويأخذ ماينفعه . لاليهلك بها غيره . ومن نظر إلى وجه غير المحرم ، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ماينفعه فى دينه ودنياه ، ويتقى بهما مايضره فيهما ، فقد استعملهما فى غير ماأريدتا به . وهذا لأن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به فى الدنيا ، والتجافى عن غرور الدنيا . ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض ، والماء ، والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض ، وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا . فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ [2])الآية

فكل من استعمل شيئا فى غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول :

من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير . وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لامنفعة فى أعيانهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه ، وملبسه ، وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك مايستغنى عنه ، كمن يملك الزعفران ، مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلابد بينهما من معاوضة ، ولا بد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله . بكل مقدار من الزعفران . ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يقال يعطى منه مثله فى الوزن أو الصورة . وكذا من يشترى دارا بثياب ، أو عبدا بخف ، أو دقيقا

(١) الأسراء : ٨٥ (٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧

بحمار ، فهذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران ؛ فتتعذر المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها ، يحكم فيها بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل ، وترتبت الرتب ، علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذاً متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لاغرض فى أعيانهما . ولو كان فى أعيانهما غرض ، ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ، ولم يقتض ذلك فى حق من لاغرض له ، فلا ينتظم الأمر . فإذاً خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل . ولحكمة أخرى ، وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان فى أنفسهما ، ولا غرض فى أعيانهما . ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، لأن غرضه فى دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو صورته كأنه ليس بشيء ، وهو معناه كأنه كل الأشياء . والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات ، إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها . كالمرآة لالون لها ، وتحكى كل لون . فكذلك النقد لاغرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض . وكالحرف لامعنى له فى نفسه ؛ وتظهر به المعانى فى غيره . فهذه هي الحكمة الثانية . وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملا لايليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذاً من كنزهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ، ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لاغرض للآحاد فى أعيانهما ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدى ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير ، مقومة للمراتب . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات

بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة، أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [1]) . وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة ، فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالا ممن كنز . لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة، والمكس، والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس : والحبس أهون منه . وذلك أن الخزف ، والرصاص ، والنحاس، تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد . وإنما الأوانى لحفظ المائعات. ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود . فمن لم ينكشف له هذا ، انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له [1] « مَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَكَأَنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ »

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض فى عينهما . فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد ، فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانهما . وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون: إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره . وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد ، فلو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيدا عنده، وينزل منزلة المكنوز . وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم . فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار ، وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ؟ ولم جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد

---

(١) حديث من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة لم يصرح المصنف بكونه حديثا .

---

[1] التوبة : ٣٤

النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل . إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا . ففي المنع منه مايشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز ، من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا نمنع مما لا تتشوق النفس إليه ، إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر . وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردىء ، فلا ينتظم العقد . وإن طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده ، فلا جرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد فى عينه . ومالا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة فى صفاته . وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة ، حتى صارت مقصودة فى أعيانها ، وحقها أن لا تقصد

وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة ، فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد للإحسان ، فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه ، لتبقى صورة المسامحة ، فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم ، لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها فى معرض المعاوضة . وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها ، أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها . فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ، ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل . والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ، ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ؟ ولم يجعله بضاعة تجارة ؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه . ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه فى كتاب آداب الكسب

نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر فى الغرض ، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ، ولكنه عابث ، فلا يحتاج إلى منع ، لأن النفوس لا تسمح به

إلا عند التفاوت فى الجودة ، ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد .
وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات ، والجيد يساوى الردىء فى أصل الفائدة ، ويخالفه فى وجوه التنعم ، أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام

فهذه حكمة الشرع فى تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه ، فلنلحق هذا بفن الفقهيات ، فإنه أقوى من جميع ما أوردناه فى الخلافيات

وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعى رحمه الله فى التخصيص بالأطعمة دون المكيلات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول . ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه ، إذ خصصه بالأقوات . ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت ، وكان ممكنا بالمطعوم ، فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء . وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم . ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق فى اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص . فمبين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضروريا . فلذلك قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [1]) ولأن أصول هذه المعانى لا تختلف فيها الشرائع . وإنما تختلف فى وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل فى الحدود داخل فى التحريم بحكم الجنس ، كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين . فينبغى أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال . فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغى أن يصرف عنها . ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [2]) ولكن لا تصادف جواهر الحكم فى قلوب هي مزابل الشهوات ، وملاعب الشياطين . بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ

---

(١) حديث لولا ان الشياطين يحومون على بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء : تقدم فى الصوم

(١) الطلاق : ١ (٢) البقرة : ٢٦٩ .

بَنِي آدَمَ لَنَظرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاءِ » . وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكوتك . وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر . إذ لا يتصور أن ينفك عنهما . وبعض ذلك نصفه فى لسان الفقه الذى تناطق به عوام الناس بالكراهة ، وبعضه بالحظر . وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله لك اليدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه فى الغالب التشريف والتفضيل. وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل . ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة . فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل . وكذلك إذا بصقت مثلا فى جهة القبلة ، أو استقبلتها فى قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله تعالى فى خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لأنه خلق الجهات لتكون متسعك فى حركتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرفها ، وإلى ماشرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه ، استمالة لقلبك إليه ، ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك فى تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك . وكذلك انقسمت أفعالك إلى ماهي شريفة كالطاعات ، وإلى ماهي خسيسة كقضاء الحاجة ، ورمي البصاق. فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها، وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة، التى بوضعها كمال عبادتك . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة فى الحظوظ ينبغى أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل . وهذا عند العارفين كبيرة ، وإن سماه الفقيه مكروها . حتى أن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة ، وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ، فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر فى هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وهم منغمسون فى ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها . فقبيح أن يقال الذى شرب الخمر ، وأخذ القدح

بيساره ، فقد تعدى من وجهين .أحدهما:الشرب ، والآخر:الأخذباليسار . ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة ، فقبيح أن يقال خان من وجهين . أحدهما: بيع الخمر، والآخر:البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة ، فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة ، من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه. فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض ، فينمحق بعضها في جانب البعض. فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه . ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده ، لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه . فكل ماراعاه الأنبياء والأولياء من الآداب ، وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام ، فسببه هذه الضرورة . وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب . نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد ، فإنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى ، وخلق له العروق ، وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ، ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده،فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة ،وعدول عن العدل.فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان فإنهما جميعا فانيان هالكان . فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا . وإليه الإشارة بقوله تعالى(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ[1]) . نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا. لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم، بل تفي بحاجة واحدة. ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظالما. فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء ، وقام بالتعهد ، فهو أولى به من غيره ، فيرجح جانبه بذلك . فإن نبت ذلك

(1) الجاثية : ١٣

فى موات الأرض ، لابسعي آدمي اختص بغرسه أو بغرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه . فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به .
وعبّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض . إذ لامالك إلا لمالك الملوك ، الذى له مافى السموات والأرض . وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه ! بل هو ملك غيره . نعم الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله . وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم . كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه ، فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده ، لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ، فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لاتفى بحاجة كل العبيد ، فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرد به العبد ، فمنع من لايدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته . فهكذا ينبغي أن تفهم أمر الله فى عباده . ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته ، وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج إليه ، فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم ، وترتفع حاجاتهم . نعم لايدخل هذا فى حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة . فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار ، والتؤدة ، والسكوت عن كل كلام غير مهم . وهو بحكم نقصانهم لايطيقونه . فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم ، لايدل على أن اللهو واللعب حق

فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال ، والاقتصار فى الإنفاق على قدر الزكاة ، لضرورة ماجبلوا عليه من البخل ، لايدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرءان إليه إذ قال تعالى (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا[1]) بل الحق الذى لا كدورة فيه ، والعدل الذى لاظلم فيه ، أن لايأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب . فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان ، إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ، ثم منعه عن راكب

(١) محمد : ٣٧

آخر محتاج إليه ، فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ،وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرءان ، والرسول ، والعقل ، وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة . فمن فهم حكمة الله تعالى فى جميع أنواع الموجودات ، قدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لانفى إلا بالقليل . وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق فى قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [1]) وفرح إبليس لعنة الله بقوله (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [2]) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأمورا أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها ، فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة فى كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة ، وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة . فكل فعل وافق مقتضى الحكمة ، حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر . وكل ماخالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران . وهذا كله مفهوم . ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم إلى مايتمم الحكمة ، وإلى مايرفعها ، هو أيضا من فعل الله تعالى . فأين العبد فى البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى ؟

فاعلم أن تمام التحقيق فى هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها . ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويجحدها من عجز عن الإيضاع فى السير ، فضلا عن أن يجول فى جو الملكوت جولان الطير . فنقول : إن لله عز وجل فى جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع . وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة ، حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها ، وخصوص حقيقتها . فلم يكن لها فى العالم عبارة لعلو شأنها ، وانحطاط رتبة واضعى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادى إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم ، كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور

---

(1) سبأ : ١٣　(2) الاعراف : ١٧

الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ، ولـكن لضعف فى أبصـار الخفافيش . فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها ، إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئا ضعيفا جداً . فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق ، فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع

ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام ، وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها ، صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت ، عبارة المشيئة . فهي توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات ، التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها . وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها ، كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية . وكان لـكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة ، لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات . فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الـكراهة : وقيل إنهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ، ولكن لـكل واحد خاصية أخرى فى النسبة ، يوهم لفظ المحبة والـكراهة منهما أمرا مجملا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات . ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهرا فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور . فـكان لـكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة . فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحـكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحـكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحـكمة به دون غايتها ، فاستعير له الـكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال . وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر ، وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال

فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبّح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تمم زينته قال يا جميل

ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقيقة هو المجمّل ، وهو المثنى على الجمال فهو المثني عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة . فهكذا كانت الأمور في الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب . ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث ، بل عن إرادة ، وحكمة ، وحكم حق ، وأمر جزم ، استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب . ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم ، بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية . وقيل إن شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء والقدر . فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل . وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر ، والاحتواء على مجامعه ، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع . وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نور الله تعالى في السموات والأرض ، وكان زيتهم أولا صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته نار ، فاشتعل نوراً على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها ، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه ، فقيل لهم : تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا ، (١) وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، فإن للحيطان آذاناً ، وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ، ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله ، وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شراباً طيباً عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله وللأرض من كأس الكرام نصيب

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا : الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثاً

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره . ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له. وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك . والأعمى ممكن أن يقاد، ولكن إلى حد ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى . وإذا دق المجال ، ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ،وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر . فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جماهير الخلق ،كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الارض. والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماءفلا يكتسب بالتعليم، بل ينال بقوة اليقين. ولذلك[1] قيل للنبي صلى اللهعليهوسلم إن عيسى عليه السلام يقال أنه مشي على الماء. فقال صلى اللهعليهوسلم «لَوِ ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشِيَ عَلَى الْهَوَاءِ »

فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب، والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها . وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم. ثم أخبر أن له عبدين ، يحب أحدهما واسمه جبريل ، وروح القدس ، والامين ، وهو عنده محبوب ، مطاع ، أمين، مكين ، ويبغض الآخر واسمه ابليس ، وهو اللعين ، المنظر إلى يوم الدين . ثم أحال الإرشاد الى جبريل فقال تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ[1]) وقال تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ[2]) وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ[3]) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة . فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه . والإرشاد سياقه لهم

---

(١) حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا فى كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزنى قال فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

---

(١) النحل : ١٠٢ (٢) غافر : ١٥ (٣) الزمر : ٨

إلى الغاية . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه . وعندك فى العادة له مثال . فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب ، وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات ، وكان له عبدان ، فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحها وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما ، وأكملهما ، وأحبهما إليه . ولا ينبغى أن تقول هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ، فإنك أخطأت ، إذ أضفت ذلك إلى نفسك . بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه ، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب ، إتماما للعدل . فإن عدله تارة يتم بأمور لامدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك . فإنك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك ، وعلمك ، وعملك ، وسائر أسباب حركاتك ، فى التعيين هو فعله ، الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لاترى إلا نفسك ، فتظن أن مايظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك

وإنما أنت مثل الصبى الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ ، الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص ، وتزعق ، وتقوم ، وتقعد ، وهى مؤلفة من خرق لاتتحرك بأنفسها ، وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لاتظهر فى ظلام الليل ، ورؤوسها فى يد المشعبذ ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون ، لظنهم أن تلك الخرق ترقص ، وتلعب وتقوم وتقعد . وأما العقلاء ، فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربما لايعلمون كيف تفصيله . والذى يعلم بعض تفصيله لايعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجاذبة بيده

فكذلك صبيان أهل الدنيا . والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء . ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة ، فيحيلون عليها . والعلماء يعلمون أنهم محركون ، إلا أنهم لايعرفون كيفية التحريك ، وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية ، بل أدق منها بكثير ، معلقة من السماء ، منشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض ، لاتدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها . وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدى الملائكة المحركين للسموات . وشاهدوا أيضا ملائكة السموات

مصروفة إلى حملة العرش ، ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لايعصوا الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون . وعبّر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (١)) وعبّر عن انتظار ملائكة السموات لماينزل إليهم من القدر والأمر فقيل (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (٢))وهذه أمور لايعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم . وعبّر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق ، حيث قرأ قوله تعالى (يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ (٣)) فقال : لوذكرت ماأعرفه من معنى هذه الآية لرجمتونى وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر . ولنقتصر على هذا القدر ، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار، وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول

إذا رجع حقيقة الشكر إلى قول العبد مستعملا في إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكرُ العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه . وأقربهم إلى الله الملائكة ، ولهم أيضا ترتيب. ومامنهم إلا وله مقام معلوم . وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام . وإنما علو درجتهم لأنهم في أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام . وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض . ويلى درجتهم درجة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم أخيار ،وقدهدى الله بهم سائر الخلق، وتمم بهم حكمته .وأعلاهم رتبة نبيناصلى الله عليه وسلم وعليهم ،إذ أكمل الله به الدين . وختم به النبيين . ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فإنهم في أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ماأصلح من نفسه ومن غيره . ثم يليهم السلاطين بالعدل ، لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين ، والملك والسلطنة ، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنهم أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم . ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء . ثم يلى العلماء والسلاطين ، الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم . ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع

(١) الذاريات : ٢٢ (٢-٣) الطلاق : ١٢ .

واعلم أن السلطان به قوام الدين ، فلا ينبغي أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا ، قال عمرو ابن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [(١)] « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِمْ أَكْثَرُ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الْأَجْرُ وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ وَإِنْ أَسَاؤُا فَعَلَيْهِمُ الْوِزْرُ وَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ » وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق . ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع . ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير ؟ فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصًّا يقصون.

الركن الثاني

من أركان الشكر ، ما عليه الشكر

وهو النعمة . فلنذكر فيه حقيقة النعمة ، وأقسامها . ودرجاتها ، وأصنافها ، ومجامعها فيما يخص ويعم . فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا [(١)]) فنقدم أمورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب

---

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدن وما يصلح الله بهم أكثر ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الاجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أوحاف أوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ الاأنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فان جور امامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والامارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبراني في الكبير باسناد لا بأس به

---

(١) النحل : ١٨ .

بيان

حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة . ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية . وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض . وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق ، لأجل أنه يفضي إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة، واللذات المسماة نعمة ، نشرحها بتقسيمات . القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا ، كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع فى الحال ويضر فى المآل ، كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى ما يضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل ، كقمع الشهوات ومخالفة النفس

فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا . كالعلم وحسن الخلق . والضار فيهما من البلاء تحقيقا ، وهو ضدهما . والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة . ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة . فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ، ويقربه منه ، ويهيء له أسبابه . فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة ، والأب يدعوه إليها ، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له . ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل .

وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل . فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو . قسمة ثانية . اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة ، قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال ، والأهل ، والولد ، والأقارب ، والجاه ، وسائر الأسباب . ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره ، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص ، كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى مايكافىء ضرره نفعه . وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر ، فينفقه فى سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا ، إذ لايزال مستصغرا له ، شاكيا من ربه ، طالبا الزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه

قسمة ثالثة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لالغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول : مايؤثر لذاته لالغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لاانقضاء لها ،فإنها لاتطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها

الثانى : مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته ، كالدراهم والدنانير، فإن الحاجة لوكانت لاتنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة. ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات،سريعة الإيصال إليها ، صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها، حتى يجمعوها ويكنزوها ،ويتصارفوا عليها بالربا ، ويظنون أنها مقصودة . ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا . فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه و بينه ، ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل ، فيعرض عنه طول عمره ؟ ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : مايقصد لذاته ولغيره ، كالصحة والسلامة ، فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا . و تقصد أيضا لذاتها ، فإن الإنسان وإن استغنى عن الشىء الذى تراد سلامة الرجل لأجله ، فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذاً المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين

فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ، ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة ، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة . قسمه رابعة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ؛ والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشرور أيضا تنقسم إلى ضار ، وقبيح ومؤلم . وكل واحد من القسمين ضربان . مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة ، أما في الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة . وأما في الشر فكالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ، ويرى نفسه جاهلا ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد ، والكبر . والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان ، فيعظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات ، أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة

والضرب الثاني : المقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم ، كقطع الأصبع المتآكلة ، والسلعة الخارجة من البدن . ورب نافع قبيح كالحمق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له ، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال ، نافع للنفس في نجاتها

والنافع قسمان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما ألبتة غيرهما ، وإلى مالا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه

قسمة خامسة : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ . واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض

الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة . إذ ليس يستلذها السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب ، لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا ، وهى أشرفها

أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم ، والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ودائمة لا تمل . فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل . ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد ، إذا رضي بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد ، فهو مصاب فى عقله ، محروم لشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة ، بخلاف المال . إذ العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإنفاق ، والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق ، والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدى السراق بالأخذ ، ولا أيدى السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا . ثم العلم نافع ، ولذيذ ، وجميل ، فى كل حال أبدا والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرءان في مواضع ، وإن سماه خيرا فى مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ، فإما لعدم الذوق ، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ، ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن . وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء . فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحي باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ [1]) إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [2]) إشارة إلى من لم يحي

(١) البقرة : ١٠ (٢) يس : ٧٠

حياة باطنة . وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى ، وإن كان عند الجهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين، وإن كانوا موتى بالأبدان

الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة: مايشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا ، وهي أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدها التصاقا ، بالمتغافلين . فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة ، فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه رتبة الصديقين ، ولاينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب . وآخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون . وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون . فأما قمعها بالكلية حتى لايقع بها الإحساس على الدوام وفى اختلاف الأحوال ، فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لايقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لايدوم طول العمر ، بل تعتريه الفترات ، فتعود إليه الصفات البشرية، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لاتقوى على حمل النفس على العدول عن العدل

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام . قلب لايحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لايدرى مالذة المعرفة ، وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالجاه ، والرياسة . والمال ، وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه ، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه فى بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ، ويعتريه فى بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد .

وأما الثانى : فالدنيا طافحة به . وأما الثالث والرابع : فموجودان ، ولكن على غاية الندور . ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وإنما تكون كثرته فى الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام . فلا يزال يزداد

العهد طولا ، وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادى ملك الآخرة ، والملك عزيز، والملوك لايكثرون، فكما لايكون الفائق فى الملك والجمال إلا نادرا ، وأكثر الناس من دونهم، فكذا فى ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخر عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة ، والصورة فى المرآة وإن كانت هي الثانية فى رتبة الوجود ، فإنها أولى فى حق رؤيتك . فإنك لاترى نفسك ، وترى صورتك فى المرآة أولا ، فتعرف بها صورتك التى هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة . فانقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما . وهذا نوع من الانعكاس . ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم . فكذلك عالم الملك والشهادة محاكٍ لعالم الغيب والملكوت . فمن الناس من يسّر له نظر الاعتبار ، فلاينظر فى شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به فقال (فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ [1]) . ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر ، فاحتبس فى عالم الملك والشهادة ، وسينفتح إلى حبسه أبواب جهنم . وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا . فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك . وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق ، فقالوا . الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمي عين اليقين . وعين اليقين لايكون إلا فى الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ، ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين . فلذلك قال الله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [2]) أي فى الدنيا (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [3]) أي فى الآخرة ، فإذاً قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة ، لايكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا . قسمة سادسة : حاوية لمجامع النعم . اعلم أن النعم تنقسم إلى ماهي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ماهي مطلوبة لأجل الغاية . أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لاجهل معه ، وغنى لافقر بعده ، وهى النعمة

(١) الحشر : ٢ (٢) التكاثر : ٥ (٣) التكاثر ٧

الحقيقية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ » وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس ، وذلك فى وقت (١) حفر الخندق فى شدة الضر . وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك ، عند إحداق الناس به (٢) فى حجة الوداع . وقال رجل : (٣) اللهم إنى أسألك تمام النعمه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟ » قال لا قال « تَمَامُ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ »

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس و إلى مايليه فى القرب كفضائل البدن ، وهو الثانى ، وإلى مايليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن ، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال ، والأهل والعشيرة وإلى مايجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهي إذاً أربعة أنواع

النوع الأول : وهو الأخص . الفضائل النفسية . ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة ، وهو العلم بالله تعالى ، وصفاته وملائكته ، ورسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفة ، ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لايمتنع أصلا ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى (أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (١)) فمن خصى نفسه لتزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر ، فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج ، فقد طغى فى الميزان . وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ، فتعتدل به كفتا الميزان

فإذاً الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة . علم مكاشفة ، وعلم معاملة ،

---

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لاعيش الاعيش الآخرة : متفق عليه من حديث أنس
(٢) حديث قوله فى حجة الوداع لاعيش الاعيش الآخرة : الشافعى مرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم فى الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إنى أسألك تمام النعمة ـ الحديث الترمذى من حديث معاذ بسند حسن

---

(١) الرحمن : ٧ ، ٩

وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى . وهو الفضائل البدنية ، وهى أربعة . الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر . ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن ، وهى أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة . ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهى أربعة : هداية الله، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر ، إذ قسمناها إلى أربعة ، وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إما حاجة ضرورية ، أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزود من الدنيا . فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم، وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى . وأما الحاجة النافعة على الجملة ، فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ، مثل المال ، والعز، والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال ، والأهل ، والجاه والعشيرة ؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المسهلة للمقصود . أما المال ، فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ الْمَالُ » وكيف لا . ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات ، وفى تهيئة اللباس ، والمسكن ، وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا بسلاح المال.

---

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد

(٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا

ثم مع ذلك يحروم عن فضيلة الحج ، والزكاة ، والصدقات ، وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء ؛ وقد قيل له ماالنعيم ؟ فقال الغنى ، فإني رأيت الفقير لا عيش له. قيل زدنا. قال الأمن فإني رأيت الخائف لا عيش له. قيل زدنا. قال العافية. فإني رأيت المريض لا عيش له. قيل زدنا. قال الشباب . فإني رأيت الهرم لا عيش له . وكأن ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . لذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وأما الأهل والولد الصالح ، فلا يخفى وجه الحاجة إليهما . إذ قال صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد [3] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه ، كانوا له مثل الأعين والأيدي ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه ، مالو انفرد به لطال شغله ، وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذاً نعمة

وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا يستغني عنه مسلم ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه علمه ، وعمله ، وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه . ولذلك قيل . الدين والسلطان توأمان. قال تعالى (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ [1]) ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم. ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه . فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه . وعلى هذا القصد كان

---

(١) حديث من أصبح معافى في بدنه آمنا في سربه ـ الحديث : الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الانصاري وقد تقدم

(٢) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة : لم أجده اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة

(٣) حديث إذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث: مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح

---

(١) البقرة : ٢٥١

الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة ، يراعون السلاطين ، ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين. لا على قصد التناول من خزائنهم، والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم. ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث نصره وأكمل دينه، وأظهره على جميع أعدائه ، ومكن في القلوب حبه ، حتى اتسع عزه وجاهه ، كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الهرب والهجرة .[1]

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم · ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم [3] من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمُ الأَكْفَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » فقيل وما خضراء

---

(١) حديث ماناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة البخاري ومسلم من حديث عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل الحديث : وللترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد الاشيء يواريه ابط بلال قال الترمذي معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخاري عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه ـ الحديث وللبزار وأبي يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله واسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم وفي رواية الترمذي أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه أن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم وفي حديث ابن عباس مابال أقوام يبتذلون أصلي فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا

(٤) حديث تخيروا لنطفكم :ابن ماجه من حديث عائشة : وتقدم في النكاح

(٥) إياكم وخضراء الدمن : تقدم فيه أيضا

الدمن ؟ قال « الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ » فهـذا أيضا من النعم . ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار ، المتوسمين بالعلم والعمل

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة ، وإلى طول العمر ، إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى » وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال ، فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات . ولعمرى الجمال قليل الغناء ، ولكنه من الخيرات أيضا . أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها . وأما فى الآخرة فمن وجهين . أحدهما أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة . وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثانى أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس ، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم . ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافى النفس . وقيل مافى الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال . الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن

وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الْوُجُوهِ » وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال الفقهاء إذا تساوت

---

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر فى عبادة الله : غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح

(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه : أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد ابن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة

درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا بذلك (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ [١]) ولسنا نعنى بالجمال مايحرك الشهوة ، فإن ذلك أنوثة . وإنما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال فى اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناصف خلقة الوجه ، بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه . فإن قلت فقد أدخلت المال ، والجاه ، والنسب والأهل ، والولد فى حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ، وكذا العلماء ، قال تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [٢]) وقال عز وجل (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [٣]) وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون ، وقيمة كل امرىء مايحسنه . وقيل . المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة ، والعمومات المخصصة ، كان الضلال عليه أغلب ، مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها ، بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى . فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها . إلا أن فيها فتنا ومخاوف . فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع ، وسم نافع . فإن أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها ، وطريق استخراج ترياقها النافع ، كانت نعمة . وإن أصابها السوادى الغر ، فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلىء ، فمن ظفر بالبحر ، فإن كان عالما بالسباحة ، وطريق الغوص ، وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر ، فقد ظفر بنعمه . وإن خاضه جاهلا بذلك ، فقد هلك . فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا . ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى الْمَالُ » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ منّ الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه فى قلوب الخلق ، وهو المعنيّ بالجاه . ولكن المنقول فى مدحها قليل ، والمنقول فى ذم المال والجاه كثير . وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب . وإنما كثر هذا وقل ذلك

---

(١) حديث ذم المال والجاه : الترمذى من حديث كعب بن مالك ماذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه : وقد تقدم فى ذم المال والبخل

---

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) التغابن : ١٤ (٣) التغابن : ١٥

لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال ، وطريق الغوص فى بحر الجاه، فوجب تحذيرهم ، فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره. ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد ، لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك ، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى ، كما كان لسليمان عليه السلام .

فالناس كلهم صبيان، والأموال حيات ، والأنبياء والعارفون معزمون . فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه ،وقد وجد حية ،وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده ، وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك، فله غرض فى الترياق ، وله غرض فى حفظ الولد . فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد . فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ، ولا يستضر به ضررا كثيرا ،ولو أخذها لأخذها الصبي، ويعظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها، ويشير على الصبي بالهرب ، ويقبح صورتها فى عينه ، ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك الغواص ، إذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك ، فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل ، فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ، ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة فى حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّكُمْ تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ » وحظهم الأوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك . وليس لهم فى المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت . وما فضل فلم يمسكوه ، بل أنفقوه . فإن

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله لولده وقد تقدم

(٢) حديث إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى

الإنفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم . ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه ، لمالوا إلى سم الإمساك ، ورغبوا عن ترياق الإنفاق . فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها ، والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها . فأما أخذها بقدر الكفاية ، وصرف الفاضل إلى الخيرات ، فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لايحمل إلا بقدر زاده فى السفر ، إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام ، وتوسيع الزاد على الرفقاء ، فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه السلام (١) « لِيَكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ » معناه لأنفسكم خاصة . وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به ، من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ، ويفرقها فى موضعه ، ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة ، (٢) استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فى أن يخرج عن جميع مايملكه ، فأذن له . فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، الحديث

فاذاً النعم الدنيوية مشوبة . قد امتزج دواؤها بدائها ، ومرجوّها بمخوفها ، ونفعها بضرها . فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ، ومستخرجا دواءها ومن لايثق بها ، فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا فى حق هؤلاء ، وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه

فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية ، والرشد ، والتأييد ، والتسديد ؟

فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد . وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره . وهذا يشمل الخير والشر ، وما هو سعادة وما هو شقاوة . ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره

---

(١) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب : ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الأسناد * قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب

(٢) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع مايملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم المسكين ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الأسناد * قلت كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا

كما أن الإلحاد عبارة عن الميل، فخصص بمن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق . ولذلك قيل

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا، فمن أين ينفعه مجرد الإرادة؟ فلا فائدة فى الإرادة، والقدرة، والأسباب، إلا بعد الهداية . ولذلك قال تعالى (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [1]) وقال تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى » أى بهدايته فقيل ولا أنت يارسول الله؟ قال « وَلَا أَنَا » . وللهداية ثلاث منازل

الأولى: معرفة طريق الخير والشر، المشار إليه بقوله تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [3]) وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده، بعضه بالعقل، وبعضه على لسان الرسل. ولذلك قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [4]) فأسباب الهدى هى الكتب، والرسل وبصائر العقول . وهى مبذولة . ولا يمنع منها إلا الحسد، والكبر، وحب الدنيا، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار. قال تعالى (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [5]) . ومن جملة المعميات الإلف والعادة، وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ [6]) الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [7]) وقوله تعالى (أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ [8]) فهذه المعميات هي التى منعت الاهتداء والهداية

---

(١) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : متفق عليه من حديث أبى هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا لا أن يتغمدنى : الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

---

(١) طه : ٥٠ (٢) النور : ٢١ (٣) البلد ١٠ (٤) فصلت : ١٧ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الزخرف : ٢٢ (٧) الزخرف ٣١ (٨) القمر : ٢٤

الثانية : وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) وهو المراد بقوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى [2]) . والهداية الثالثة وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهتدي بها إلى مالا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم . وهو الهدى المطلق ، وماعداه حجاب له ومقدمات . وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه ، وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى [3]) وهو المسمى حياة في قوله تعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ [4]) والمعني بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [5]) . وأما الرشد ، فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على مافيه صلاحه ، وتفتره عما فيه فساده . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [6]) فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ، محركة إليها . فالصبي إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ، ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء ، لايسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على مايعلم إنه يضره ، فقد أعطى الهداية ، وميزبها عن الجاهل الذي لايدري أنه يضره ، ولكن ماأعطى الرشد : فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال ، وهي نعمة عظيمة .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسيرها عليه ، ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت . فإن الهداية بمجردها لا تكفي . بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد . والرشد لا يكفي ، بل لابد من تيسير الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد .

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧ (٣) البقرة : ١٢٠ (٤) الانعام : ١٢٢ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٥١

وأما التأييد ، فكأنه جامع للكل . وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وهو المراد بقوله عز وجل (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ [١]) وتقرب منه العصمة . وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس . وإياه عنى بقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ [٢])

فهذه هي مجامع النعم . ولن تنثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب ، والسمع الواعى ، والقلب البصير المتواضع المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته . والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء . ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين، وملجأ المضطرين ؛ وذلك رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها ، فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا [٣]) وبالله التوفيق

بيان

وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا . وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتأخرة . فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها . ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التى بها تتم نعمة الأكل ، فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة . ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له . ولا بد للآكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه . فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات ، ثم أسباب القدرة ، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(١) المائدة : ١١٠ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) ابراهيم : ٣٤

الطرف الأول

فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجودا من الحجر ، والمدر ، والحديد ، والنحاس، وسائر الجواهر التى لاتنمى ولا تغذى ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض ، وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء، وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة ، حتى تغيب عن البصر ،إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ، ويماس أصله ، جف وييبس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر . فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب ، وبالانتقال إليه . والنبات عاجز عن ذلك . فمن نعمة الله تعالى عليك ، أن خلق لك آلات الإحساس، وآلة الحركة فى طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس ، التى هى آلة الإدراك . فأولها :حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة ، أو سيف جارح ، تحس به فتهرب منه . وهذا أول حس يخلق للحيوان . ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان . وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه . فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة. وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التى فى الطين ، فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات . فإن النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحس بالقطع . إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة ، لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك . بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط . فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعُد عنك . فخلق لك الشم . إلا أنك تدرك به الرائحة ، ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية . فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب ، فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا . فخلق لك البصر، لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

لكنت ناقصا ، إذلاتدرك بهذا ماوراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك و بينه حجاب وتبصر عدوًّا لاحجاب بينك و بينه . وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لاينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدوّ ، فتعجز عن الهرب . فخلق لك السمع ، حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لاتدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا . وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع . فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك أذنك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات . وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ، ولاذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها . ثم كل ذلك لايكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر ، يسمى حسا مشتركا ، تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس ، وتجتمع فيه . ولولاه لطال الأمر عليك . فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا ، فوجدته مرا مخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مرّ مضر مالم تذقه ثانيا ، لولا الحس المشترك . إذ العين تبصر الصفرة ولاتدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يدرك المرارة ولايدرك الصفرة فلابد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانيا . وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات . إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا . فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلص إذا قيدت . وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها . ولذلك قد تأكل البهيمة ماتستلذه فى الحال ، ويضرها فى ثانى الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر . فأما إدراك العواقب فلا . فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل ، وهو العقل . فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أخس فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه . بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة فى عالمه . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس

فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان ، والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ، والأخرى بأخبار الحر ، والبرد ، والخشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، وغيرها . وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك . والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك ، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها ، وجمعها ، وحفظها . فأما معرفة حقائق مافيها فلا . ولكن إذا صادف القلب العاقل ، الذى هو الأمير والملك ، سلم الأنهاآت إليه مختومة ، فيفتشها الملك ، ويطلع منها على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها فى هذا المقام . وبحسب مايلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود ، وهى الأعضاء ، مرة فى الطلب ، ومرة فى الهرب ، ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعن له . فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الإدراكات . ولا تظنن أنا استوفيناها . فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة ، بعضها رطوبات وبعضها أغشية . وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة . وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض ، وبعضها كأنه الجمد . ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وعرض ، وتدوير ، وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر ، أو صفة واحدة من صفات كل طبقة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم

فهذا فى حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس . بل لايمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملته لاتزيد على جوزة صغيرة . فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى

فى أصناف النعم فى خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ، ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه ، وشهوة له تستحثك على الحركة، لكان البصر معطلا . فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ،فيبقى البصر والإدراك معطلا فى حقه . فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى مايوافقك، يسمى شهوة ، ونفرة عما يخالفك ، تسمى كراهة ، لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام ، وسلطها عليك ، ووكلها بك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول ، حتى تتناول وتغتذى ، فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات

ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة ، أسرفت وأهلكت نفسك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ، لتترك الأكل بها ، لا كالزرع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد ،فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ،فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك ،خلق لك شهوة الجماع ، حتى تجامع فيبقى به نسلك . ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور ؛ وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة، ثم عظما ولحما ودما، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس، ويد، ورجل وبطن، وظهر ، وسائر الأعضاء، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب ،فضلا عما تراه الآن . ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الاكل وحده كى لا يطول الكلام

فإذاً شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ،فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب . فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ،لبقيت عرضة للآفات ، ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء . فإن كل واحد يشتهى ما فى يديك ،فتحتاج

إلى داعية فى دفعه ومقاتلته ، وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك

ثم هذا لا يكفيك ، إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع فى الحال. وأما فى المآل ، فلا تكفى فيه هذه الإرادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة ، فتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ، مالم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة . وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبنى آدم، كما أفردت بمعرفة العواقب . وقد سميناهذه الارادة اعثا دينيا ، وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا

الطرف الثالث

فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب. وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاق إلى شىء بعيد عنه ، مدرك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده ، أو لفالج وخدر فيهما . فلابد من آلات للحركة ، وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا ، وبمقتضى الكراهية هربا . فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ماهو للطلب والهرب ، كالرجل للإنسان، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان . وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها مايكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة ، فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع قوائم . ومنها ماله رجلان . ومنها مايدب . وذكر ذلك يطول . فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ، ليقاس عليها غيرها فنقول . رؤيتك الطعام من بُعد ، وحركتك إليه لا تكفى ، مالم تتمكن من أن تأخذه . فافتقرت إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين ، وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ، ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات ، فتمتد وتنثنى إليك فلا تكون كخشبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضا

بخلق الكف . ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع . وجعلها فى صفين . بحيث يكون الإبهام فى جانب . ويدور على الأربعة الباقية . ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك . فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة ، وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض . ثم خلق لها أظفارا ، وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تتفتت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الاصابع فتأخذها برءوس أظفارك . ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين ، فمن أين يكفيك هذا ، مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن فلابد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها ، حتى يدخل الطعام منه . فجعل الفم منفذا إلى المعدة ، مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة ، فلا يتيسر ابتلاعه ، فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع . ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك . فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس . وإلى حادة قواطع كالرباعيات . وإلى مايصلح للكسر كالأنياب . ثم جعل مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر ، حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى . ولو لا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى ، فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى . فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام فى فناء الفم ، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أوكيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، أوكيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى . هذا مع مافيه من فائدة الذوق ، وعجائب قوة النطق . والحكم التى لسنا نطنب بذكرها . ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس ، فلا تقـدر على الابتـلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها ، وينصب بقـدر الحاجة ، حتى ينعجن به الطعام . فانظر كيف سخرها لهذا الأمر ، فإنك ترى الطعام من بعد ، فيثور الحنكان للخدمة ، وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك ، والطعام بعدُ بعيدٌ عنك. ثم هذا الطعام المطحون المنعجن ، من يوصله إلى المعدة وهو فى الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد ، ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام . فانظر كيف هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخـذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعـام بضغطه ، فيهوى إلى المعدة فى دهليز المرىء . فإذا ورد الطعام على المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة ، بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه . فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قِدر ، فيقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه ، وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التى تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الـكبد ، ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب ، فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها ، يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق . وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغـذية فخلق الله تعالى بينها وبين الـكبد مجارى من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة ، حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهى إلى الـكبد .

والـكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء الـكبد ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر فى أجزائها ، حتى تستولى عليه قوة الـكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الأعضاء . إلا أن حرارة الـكبد هي التى تنضج هذا الدم . فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ ، إحداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو الخلط السوداوى ، والأخرى شبيهـة بالرغوة ، وهى الصفراء . ولو لم تفصل عنهـا

الفضلتان فسد مزاج الأعضاء . فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد ، داخلا فى تجويفه . فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال العكر السوداوى . فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة ، لما فيه من المائية . ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد ، حتى يجذب مايليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد . إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق . فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث ، نقيا من كل مايفسد الغذاء . ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ، ويصل إلى سائر الأعضاء ، حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار ، بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء . ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم ، وحصل منه الأمراض الصفراوية ، كاليرقان والبثور والحمرة . وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى ، حدثت الأمراض السوداوية ، كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها . وإن لم تندفع المائية نحو الكلا حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم ، كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة ، أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها ، وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ، ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة ، ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع ، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ، وتكون صفرته لذلك

وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها فى كل يوم شيئا إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة بحموضته ، وينبهها ويثيرها ، ويخرج الباقى مع الثفل

وأما الكلية فإنها تغتذى بما فى تلك المائية من دم ، وترسل الباقى إلى المثانة

ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء

الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن ، وبواسطتها يصل الحس ، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء ، وعدد عظامها ، وعضلاتها ، وعروقها وأوتارها ، ورباطاتها ، وغضاريفها ، ورطوباتها ، لطال الكلام . وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه . بل فى الآدمي آلاف من العضلات ، والعروق ، والأعصاب ، مختلفة بالصغر ، والكبر ، والدقة والغلظ ، وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان ، أو ثلاث ، أو أربع ، إلى عشر وزيادة . وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين . فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا ، لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهى فيجامع ، ويستنهض فينهض ويرمح . فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرفه الحمار ، فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك . وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط . فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل . وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى ، أقل من قطرة من بحر . إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا[1]) . ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء ، وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف ، يتصاعد من الأخلاط الأربعة ، ومستقره القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوة حس وإدراك ، وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت ، فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت ، من خلق الله تعالى واختراعه ، ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحله القلب : ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة ، والدم الأسود

(1) النحل : ١٨

الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفىء مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت ، فينطفىء السراج مع كثرة الزيت ، فكذلك الدم الذى تشبثت به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب ، فينطفىء مع وجود الغذاء ، فإنه لا يقبل الغذاء الذى يبقى به الروح . كما لايقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به

وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل . وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت ، أو بفساد الفتيلة ، أو بريح عاصف ، أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ؛ ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده ، فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح ، وهي أنوار الإحساسات ، والقُدر ، والإرادات ؛ وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة

فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ، ليعلم أنه لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر نعمته سحقا

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم [1] سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) فلم يصفه لهم على هذا الوجه ،

فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح. فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها . ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا . وقد عرفوا صفته

---

(١) حديث انه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى :متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى شرح عجائب القلب

---

(١) الاسراء : ٨٥

ووجوده ، وكيفية سريانه فى الأعضاء ، وكيفية حصول الإحساس والقوى فى الأعضاء به حتي إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجري هذا الروح ، فلا يعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب ، وبواسطته يتأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل

وأما الروح التى هى الأصل ، وهي التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة فى وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني ، كما قال تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى [١]) والأمور الربانية لاتحتمل العقول وصفها ، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق . وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه ، بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال

وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا . فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغه بعد . وإنه لمقام شريف ، ومشرب عذب ، ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد ، بل لايطلع عليه إلا واحد بعد واحد . ولجناب الحق صدر ، وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الربانى . فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ، ولا لحافظ العتبة مشاهدة ، استحال أن يصل الميدان . فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ! ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا فى خزانة الأطباء ! ومن أين للطبيب أن يلاحظه ! بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب ، بالإضافة إلى هذا الأمر الربانى ، كالكرة التى يحركها صولجان الملك . بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الربانى ، كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك ، فظن أنه رأى الملك . ولا يشك فى أن خطأه فاحش . وهذا الخطأ أفحش

---

(١) الاسراء : ٨٥

منه جداً . ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف، وبها تدرك مصالح الدنيا، عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر ، لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته . أما نسبته ففي قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) وأما فعله فقد ذكر في قوله تعالى (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي [2])

ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى في الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل

الطرف الرابع

في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته ، اعلم أن الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية لا تتناهى . وذكر ذلك في كل طعام مما يطول . فإن الأطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ، ولندع سائر الأغذية فنقول :

إذا وجدت حبة أو حبات ، فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا . فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها ، وتزيد وتتضاعف ، حتى تفي بتمام حاجتك . فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة ، ولا يخالفك في الاغتذاء ، لأنه يتغذى بالماء ، ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق ، كما تغتذي أنت وتجتذب . ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك ، بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء ، بل تحتاج إلى شيء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد ، لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح

---

(1) الاسراء : ٨٥ (2) الفجر : ٢٧ - ٢٩

لغذائها . ولو تركتها فى الماء لم تزد . ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد . بل لا بد من أرض فيها ماء ، يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا[1])

ثم لا يكفى الماء والتراب . إذ لو تركت فى أرض ندية ، صلبة متراكمة . لم تنبت لفقد الهواء . فيحتاج إلى تركها فى أرض رخوة متخلخلة ، يتغلغل الهواء إليها . ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[2]) وإنما إلقاحها فى إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان فى برد مفرط ، وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف . فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد . إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار ، والعيون ، والأنهار ، والسواقى . فانظر كيف خلق الله البحار ، وفجر العيون ، وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة ، والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضى فى وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشى . ونعم الله فى الجبال ، والسحاب ، والبحار ، والأمطار ، لا يمكن إحصاؤها . وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض فى وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر . فهذه إحدى حكم الشمس . والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان فى الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم . ولذلك لو كانت الأشجار فى ظل يمنع شروق

---

(١) عبس : ٢٤ - ٢٩ (٢) الحجر : ٢٢

الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها ، لكانت فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة . وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام . فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا . ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه ، بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب . فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها . ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ، ولم يصح قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً [١]) وقوله عز وجل (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [٢]) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة ، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك . وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع ، لما ورد فيه من [١] النهي عن تصديق المنجمين ، وعن علم النجوم . بل المنهي عنه في النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها ، مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها ، وهذا كفر . والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل . فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ . فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض ، وفي النبات ، وفي الحيوان ليس قادحا في الدين . بل هو حق .

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم : أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان اذا ذكر النجوم فأمسكوا واسنادهما ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يارسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) الدخان : ٣٨

ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح فى الدين . ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء ، لايلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكارعليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان ، فقال قرعتنى الشمس فى الطريق فاسود وجهى ، لم يلزمك تكذيبه بذلك . وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم ، وبعضها مجهول . فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فإذاً الكواكب ماخلقت عبثا، بل فيها حكم كثيرة لاتحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء [1] وقرأ قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [1]) ثم قال صلى الله عليه وسلم « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب . وذلك مما تعرفه البهائم أيضا . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذى مسح بها سبلته . فلله تعالى فى ملكوت السموات ، والآفاق ، والأنفس ، والحيوانات ، عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ، ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبّا له . فكذلك الأمر فى عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كله من تصنيفه ، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنّفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصانيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته، وتسديده، وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب ، فإنها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى ترك تأملها : الثعلبى من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحى بن أبى حية ضعيف

(١) آل عمران : ١٩١

المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار . فإذاً المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، والكواكب . ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التى هى مركوزة فيها . ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها . ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

الطرف الخامس

فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض . والناس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى . فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح ، مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الأمر شيء ، بل يجمعون ، فإما أن تغرق بها السفن ، أو تنهبها قطاع الطريق ، أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح، ويركبوا الأخطار ، ويغرروا بالأرواح فى ركوب البحر ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك . وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن، وكيفية الركوب فيها . وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل فى البرارى . وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف امتدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش . وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج . وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها، وأدواتها ، وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ، فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة . وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن . ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز

الطرف السادس

في إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات ، وما يخلق من الحيوانات ، لايمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك . بل لابد في كل واحد من إصلاح ، وطبخ ، وتركيب ، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض ، إلى أمور أخر لاتحصى . واستقصاء ذلك في كل طعام يطول ، فلنعين رغيفا واحدا ، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض . فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه ، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة ، ثم تنقية الأرض من الحشيش ، ثم الحصاد ، ثم الفرك والتنقية ، ثم الطحن ثم العجن ، ثم الخبز . فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها ومالم نذكره ، وعدد الأشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد ، والخشب ، والحجر وغيره ، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة ، والطحن ، والخبز ، من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد ، والرصاص ، والنحاس ، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال ، والأحجار ، والمعادن ، وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة . فإن فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يامسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع . فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء ، إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة ، حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان . فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع ، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق . ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات ، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك ، لاتكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبرى خمساً وعشرين مرة ، ويتعاطى في كل مرة منها عملا . فلولم يجمع الله تعالى البلاد ، ولم يسخر العباد ، وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة ، لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة . فانظر إلى المقراض مثلا ، وهما جامان متطابقان، ينطبق أحدهما على الآخر، فيتناولان الشيء معاو يقطعانه بسرعة. ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ، ثم إلى استخراج الحديد من الحجر، وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض ، وعمر الواحد منا عمر نوح ، وأوتى أكمل العقول، لقصر عمره عن استنباط الطريق فى إصلاح هذه الآلة وحدها ، فضلا عن غيرها : فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان ، وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد .أو عن الحجام الذى هو أخس العمال ،أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصناع ، ماذا يصيبك من الأذى ، وكيف تضطرب عليك أمورك كلها . فسبحان من سخر بعض العباد لبعض ، حتى نفذت به مشيئته ، وتمت به حكمته

ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا ، فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

الطرف السابع

فى إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها ، لو تفرقت آراؤهم ،وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش ، لتبددوا وتباعدوا ،ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد .فانظر كيف ألف الله بين قلوبهم ،وسلط الأنس والمحبة عليهم (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ (١)) فلأجل الألف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا ، وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه . ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون فيها . ففى جبلة الإنسان الغيظ ، والحسد ، والمنافسة ، وذلك مما يؤدى إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين ، وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب، وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها . وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد ، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ،ينتفع

(١) الأنفال : ٦٣

البعض منها بالبعض . فرتبوا الرؤساء ، والقضاة ، والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل ، وألزموهم التساعد والتعاون، حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب ، والخباز ، وسائر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحداد .وصار الحجام ينتفع بالحراث،والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد ، بسبب ترتيبهم ، واجتماعهم ، وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن،وينتفع بعضها ببعض

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا ، وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق ، وقوانين السياسة فى ضبطهم،وكشفوا من أحكام الإمامة ،والسلطنة ،وأحكام الفقه مااهتدوا به إلى إصلاح الدنيا ، فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين . وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض ، إلى أن ينتهى إلى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى

فالخباز يخبز العجين ، والطحان يصلح الحب بالطحن ، والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثة ، والنجار يصلح آلات الحداد ، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة ، والسلطان يصلح الصناع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء ، إلى أن ينتهى إلى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وكل ذلك نعم من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى . ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه ، لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء . ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة ،فقال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [2]) فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا ، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا ، إذ لا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأنا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [3]) فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٨ (٣) غافر : ١٦

الطرف الثامن

فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله فى خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم ، وتبليغ الوحي إليهم . ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر . بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية، والسماوية ، وحملة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه ، دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك ، بل من أجزاء النبات . لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة ، إلى مائة إلى ما وراء ذلك . وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ، وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر ، ثم يصير لحما وعظما . وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك . والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار ، فهى لا تتحرك بأنفسها ، ولا تتغير بأنفسها ، ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا ، ثم عجينا ، ثم خبزا مستديرا مخبوزا إلا بصنّاع . فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما ، وعظما ، وعروقا ، وعصبا إلا بصناع . والصناع فى الباطن هم الملائكة . كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول : لابد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم ، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ، ولابد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ولابد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم . ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة اللحم باللحم ، حتى لا يكون منفصلا . ولابد من سابع يرعى المقادير فى الالصاق ، فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض ما لا يزيل عرضه ، وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فإنه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه ، وبطل تجويفه ، وتشوهت صورته وخلقته ، بل ينبغى

أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الافخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع ، وضعفت بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل فى القسمة والتقسيط . فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا ، لبقيت تلك الرجل كما كانت فى حد الصغر ، وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا فى ضخامة رجل ، وله رجل واحدة كأنها رجل صبي ، فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فمراعاة هذه الهندسة فى هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدرى ما يقول . فهذه هى الملائكة الأرضية ، وقد شغلوا بك وأنت فى النوم تستريح ، وفى الغفله تتردد ، وهم يصلحون الغذاء فى باطنك ، ولا خبر لك منهم ، وذلك فى كل جزء من أجزائك الذى لا يتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز . والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى . ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش . والمنعم على جملتهم بالتأييد ، والهداية والتسديد المهيمن القدوس ، المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت جبار السموات والأرض ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام (١) والأخبار الواردة فى الملائكة

---

(١) حديث الأخبار الواردة فى الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل فطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب انتهى ففى الصحيحين من حديث أبى ذر فى قصة الاسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح ـ الحديث : ولهما من حديث أبى هريرة ان لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام وفى الصحيحين من حديث عائشة فى قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فنادانى ملك الجبال ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ الحديث : ولهما من حديث أنس أن الله وكل بالرحم ملكا ـ الحديث : وروى أبو المنصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث بريدة الاسلمى مامن نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد ـ الحديث : وفيه محمد بن صالح الطبرى وأبو عمر البكراوى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف وللطبرانى من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف ان الله ملائكة ينزلون فى كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة فى عنقها جرس وللترمذى وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود ياأبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبى هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة ـ الحديث

الموكلين بالسموات والأرض ، وأجزاء النبات والحيوانات ، حتى كل قطرة من المطر ، و كل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ، أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به . فإن قلت : فهلا فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ، ولم افتقر إلى سبعة أملاك ؟ والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولا ، ثم إلى من يميز عنه النخالة و يدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ، يستقل به ، فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس . وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [1]) فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم فى تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس . فإن البصر لا يزاحم السمع فى إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمها ، ولا هما ينازعان الشم . وليس كاليد والرجل . فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب . ولا كالإنسان الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن ، والعجن ، والخبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل . ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى ، لاختلاف دواعيه وصفاته . وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة . بل هم مجبولون على الطاعة ، لا مجال للمعصية فى حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . و يسبحون الليل والنهار لا يفترون . والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم ، يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك . فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان ، لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف

---

(١) الصافات : ١٦٤

فى طاعتك مرة ، ومعصيتك أخرى . بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، ينفتح ، وينطبق متصلا بإشارتك . فهذا يشبهه من وجه . لكن يخالفه من وجه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا ، والملائكة أحياء عالمون بما يعملون . فإذاً هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسماوية ، وحاجتك إليهما فى غرض الأكل فقط ، دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها ، فإنا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات !

فإذاً قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ[1]) فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد ، وسوء الظن ، والبدعة ، واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب ، هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الاثم الظاهر بالجوارح ، شكر للنعمة الظاهرة . بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر ، فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما . فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة ، والسموات والأرض والحيوانات والنبات ، بجملته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تم به انتفاعه ، وإن انتفع غيره ايضا به ، فإن لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلى ، وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ، ومتشبثا للأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منهما نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ، ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب . فينظر من وراء شباك الشعر ، فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

---

(١) الأنعام : ١٢٠ .

ثم إن أصاب الحدقة غبار ، فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة ، كالمصقلة للمرآة ، فيطبقها مرة أو مرتين ، وقد انصقلت الحدقة من الغبار ، وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان . والذباب لما لم يكن لحدقته جفن ، خلق له يدين فتراه عَلَى الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار . وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول :

ومن نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الأجفان . ولا تقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض ، والهواء ، والمطر ، والغيم ، والشمس ، والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فإذا قد كفر كل نعمة فى الوجود ، من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ، ولا ملك ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جماد إلا ويلعنه . ولذلك ورد فى الأخبار [1] أن البقعة التى يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم . وكذلك ورد [2] أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر [3] وأن الملائكة يلعنون العصاة ، فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها . وكل ذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت ، وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . يا أيوب ، ما من عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريبا ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندى أنى أشكر شكرهم ، وملائكتى يدعون لهم ، والبقاع تحبهم ، والآثار تبكى عليهم .

---

(١) حديث أن البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر : تقدم فى العلم

(٣) حديث أن الملائكة يلعنون العصاة : مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ،ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا

ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا(١)) قال . إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان ، أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها وكذا ورد فى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه ، وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب ، فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لاتقع عينه فى العالم على شىء ولايلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل ، فإنه طمع فى غير مطمع

بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة . فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولايتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها . ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه . الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهى طاعة الله عز وجل . فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب . وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لايعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة . فلذلك لايشكرون على جملة ماذكرناه من النعم ؛ لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم . فلايرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به ، فلا يعده نعمة ، ولاتراهم يشكرون الله على روح

---

(١) النحل : ١٨

الهواء ، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ؛ ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار ، أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ، ماتوا غما . فإن ابتلى واحد منهم بشيء من ذلك ثم نجا ، ربما قدّر ذلك نعمة ، وشكر الله عليها . وهذا غاية الجهل . إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال . والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر فى بعضها . فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره ، وعده نعمة . ولما كانت رحمة الله واسعة ، عمم الخلق ، و بذل لهم فى جميع الأحوال ، فلم يعده الجاهل نعمة . وهذا الجاهل مثل العبد السوء ، حقه أن يضرب دائما ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة . فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر ، وترك الشكر : فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر ، وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرءان سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا . فعدد عليه سورا ثم قال . فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ! فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء و بيده كوز ماء يشربه . فقال له : عظنى . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك ، وإلا بقيت عطشان ، فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم . فقال لو لم تعط إلا بملكك كله ، فهل كنت تتركه ؟ قال نعم . قال . فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء . فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها . وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ؛ وقد ذكرنا النعم العامة ، فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول . مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله ، رأى من الله

نعمة أو نعما كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من الناس ، وربما لا يشاركه فيها أحد . وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل . وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه ، كما يفرح به المتصف به . فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس ، فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه ، فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ، لأنه فى حقه كالباقى . وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها ، وأخلاقا يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها . فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى ، إذ حسّن خلقه ، وابتلى غيره بالخلق السيء .

وأما العلم ، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه ، وخفايا أفكاره ماهو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح . فكيف لو اطلع الناس كافة ! فأذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله . فلمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح ، وأخفى ذلك عن أعين الناس ، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد . فهذه ثلاثة من النعم خاصة ، يعترف بها كل عبد ، إما مطلقا ، وإما فى بعض الأمور . فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول . مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو شخصه أو أخلاقه ، أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه ، أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو عزه ، أو جاهه ، أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه ، وأعطى ماخصص به غيره لكان لا يرضى به . وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا ، وحيا لا جمادا ؛ وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى ، وصحيحا لا مريضا ، وسليما لا معيبا ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا . فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها . بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا . وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق ، أو لا يبدله بما خص به الأكثر . فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره ، فإذاً حاله أحسن من حال

غيره . وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه ، إما على الجملة ، وإما في أمر خاص ، فإذاً لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه . وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه . فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدري نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه . أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها ، يعتذر إليها بأن في الفساق كثرة ، فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟ فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق في الدين خيرا منه ، وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ! ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (١) « مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللهُ صَابِراً وَشَاكِراً وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ صَابِراً وَلَا شَاكِراً »

فإذاً كل من اعتبر حال نفسه ، وفتش عما خص به ، وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة ، والإيمان ، والعلم ، والقرءان ، ثم الفراغ ، والصحة ، والأمن وغير ذلك . ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... في دينه ثم في دنياه إقبالا
فلينظرن إلى من فوقه ورعا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللهِ فَلَا أَغْنَاهُ اللهُ » وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام (٣) « إِنَّ الْقُرْءَانَ هُوَ الْغِنَى الَّذِي لَا غِنَى بَعْدَهُ وَلَا فَقْرَ مَعَهُ » وقال عليه السلام (٤) « مَنْ آتَاهُ اللهُ الْقُرْءَانَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدِ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللهِ »

---

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا الحديث : الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف

(٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله : لم أجده بهذا اللفظ

(٣) حديث ان القرءان هو الغناء الذي لاغناء بعده ولا فقر معه : أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن القرءان غنى لافقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الاعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسلا وهو اشبه بالصواب

(٤) حديث من آتاه الله القرءان فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزأ بايات الله : البخاري في التاريخ من

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْءَانِ » وقال عليه السلام (٢) « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » . وقال بعض السلف . يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة إن عبدا أغنيته عن ثلاثة ، لقد أتممت عليه نعمتى ، عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه . وعبر الشاعر عن هذا فقال

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات ، كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال (٣) « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِى سِرْبِهِ مُعَافًى فِى بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » . ومهما تأملت الناس كلهم ، وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ، ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الإيمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم ، والملك العظيم . بل البصير ينبغى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب ، من أموال وأتباع ، وأنصار ، وقيل له خذها عوضا عن علمك ، بل عن عشر عشير علمك ، لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة . بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات فى الدنيا ، بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وباقية لا تسرق ، ولا تغصب ، ولا ينافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ، مكدرة ، مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بغمها . هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا

حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن ان احدا أوتى افضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرءان ورجاء يختلف فى صحبته ورويه من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة

(١) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان : تقدم فى آداب التلاوة

(٢) حديث كفى باليقين غنى : الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه وقد تقدم

(٣) حديث من اصبح آمنا فى سربه : الحديث تقدم غير مرة

تكون ما بقي الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها ، أبت عليها واستعصت . كالمرأة الجميل ظاهرها ، تتزين للشاب الشبق الغنى ، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها فى تعب قائم ، وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها فى لحظة . ولو عقل وغض البصر ، واستهان بتلك اللذة ، سلم جميع عمره . فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها . ولا ينبغى أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها . فإن المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها ، وتحصيلها ، ودفع اللصوص عنها . وتألم المعرض يفضى إلى لذة فى الآخرة ، وتألم المقبل يفضى إلى الألم فى الآخرة . فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ [1]) ، فإذا إنما أنسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة

فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة ؟ حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر .

فأقول : أما القلوب البصيرة ، فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها ، أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى ، والمقابر ، والمواضع التى تقام فيها الحدود . فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ، ثم يتأمل فى صحته وسلامته ، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ، ويشكر الله تعالى . ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ، ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ، ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليتدارك ، وأما من أطاع فليزد فى طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن . فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات . وأما العاصى فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر ، وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر ما بقى له ،

---

(1) النساء : ١٠٤

فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل في الإمهال في كل نفس من الأنفاس . وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله ، وهو التزود من الدنيا للآخرة .

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره ، يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة . فكان قد حفر في داره قبراً ، فكان يضع غلافي عنقه ، وينام في لحده ثم يقول : (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا[1]) ثم يقوم ويقول : ياربيع ، قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم : وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفي الخبر[1] ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ[2]) فهذا تمام هذا الركن

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان

وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول ماذكرته في النعم إشارة إلى أن لله تعالى في كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا . فما معنى الصبر إذاً ؟ وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء ، فضلا عن الشكر على النعمة ،

---

(١) حديث ماعظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه ـ الحديث : ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ الاعظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث : ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال انه موضوع على حجاج الأعور

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) الرعد : ١١

فكيف يتصور الشكر على البلاء؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه! والصبر على البلاء يستدعى ألما، والشكر يستدعى فرحا، وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى فى كل ما أوجده نعمة على عباده؟ . فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة، يوجب القول بإثبات البلاء، لأنهما متضادان. ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء. ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه، أما فى الآخرة فكسعادة العبد بالنزول فى جوار الله تعالى، وأما فى الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليها، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه، كالمال الذى يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد

أما المطلق فى الآخرة، فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا. وأما فى الدنيا، فالكفر والمعصية، وسوء الخلق، وهى التى تفضى إلى البلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر، والمرض، والخوف، وسائر أنواع البلاء التى لا تكون فى بلاء الدين بل فى الدنيا

فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق فى الدنيا، فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء، ولا معنى للصبر عليه: وكذا المعصية. بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصى. نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر، فيكون كمن به علة، وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصى يعرف أنه عاص، فعليه ترك المعصية. بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه. فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش، حتى عظم تألمه، فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته . فإذاً يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر. فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان، حتى يقصد بسبب ماله، فيقتل وتقتل أولاده. والصحة أيضا كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه. فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيرة له فى الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله

لبطر وبغى · قال الله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللّٰهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ[١])وقال تعالى (كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى[١]) وقال صلى الله عليه وسلم[٢] «إِنَّ اللّٰهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ» وكذلك الزوجة، والولد، والقريب

وكل ما ذكرناه فى الأقسام الستة عشر من النعم ، سوى الإيمان وحسن الخلق ، فإنها يتصور أن تكون بلاء فى حق بعض الناس ، فتكون أضدادها إذاً نعما فى حقهم ، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة ، فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد فى بعض الأمور بلاء ، ويكون فقدها نعمة . مثاله جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه . إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه . وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر وأطلع عليه ، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام . وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه ، وكان ذلك وبالا عليه فى الدنيا والآخرة · بل جهله بالخصال المحمودة فى غيره قد يكون نعمة عليه ، فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف

ومنها إبهام الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامه بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة ، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد .

فهذه وجوه نعم الله تعالى فى الجهل فكيف فى العلم . وحيث قلنا إن لله تعالى فى كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد فى حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التى يخلقها فى بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمه فى حق سالم بها فإن لم تكن نعمة فى حقه، كالألم الحاصل من المعصية ، كقطعه يد نفسه ، ووشمه بشرته ، فإنه يتألم به وهو عاص به . وألم الكفار فى النار فهو أيضاً نعمة ، ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب ، وعذب به طائفة ، لما عرف المتنعمون قدر نعمه ، ولا كثر فرحهم بها . ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا

(١) حديث ان الله ليحمى عبده الدنيا ــ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

(١) الشورى : ٢٧ (٢) العلق : ٦

فى آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها ، من حيث إنها عامة مبذولة . ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها : فإذاً قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عباده ، أو على بعضهم . فإذاً فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضاً ، إما على المبتلى ، أو على غير المبتلى . فإذاً كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان ، الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم . ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ، ويفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، و بلاء فى الدنيا خمسة أمور ، ينبغى أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها . أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها . إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر . إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا .

الثانى : أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى . فقال : اشكر الله تعالى . لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال . اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال اشكر الله . فجيء بمجوسى فحبس عنده ، وكان مبطونا ، فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله ، وحلقه فى رجل المجوسى : فأرسل إليه ، فقال اشكر الله . فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات ، وهو يحتاج أن يقوم معه ، ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال اشكر الله ، فقال إلى متى هذا ؟ وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال

لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ . فإذاً ما من إنسان قد أصيب ببلاء ، إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه ، لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر . ومن استحق عليك أن يقطع يديك ، فترك إحداهما ، فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع ، فصب على رأسه طشت من رماد . فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له ما هذه السجدة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم . ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ؟ فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجر .

فإن قلت: كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبىء له ما هو أكثر . وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ، ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا [1]) .

وأما العاصى ، فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ؟ ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته ، أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ، ولذلك قال تعالى فى مثله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ [2]) فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟ ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة ، وعجلت عقوبتك فى الدنيا . فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر ، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة ، فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين . ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

---

(١) حديث ان العبد اذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا : الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ـ الحديث: لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ـ الحديث :

---

(١) آل عمران : ١٧٨ (٢) النور : ١٥

أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ ثَانِيًا »

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما: الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبي . فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره . فكذلك المال ، والأهل ، والأقارب ، والأعضاء، حتى العين التى هى أعز الأشياء ، قد تكون سببا لهلاك الإنسان فى بعض الأحوال . بل العقل الذى هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه. فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا، ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى . فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينية . فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة، ويشكره عليه. فإن حكمة الله واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روي[1] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال « لَا تَتَّهِمِ اللهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ »[2] ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك، فسئل فقال «عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

الوجه الثاني: أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا . ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب

---

(١) حديث قال له رجل أوصنى قال لاتتهم الله فى شيء قضاه عليك أحمد: والطبرانى من حديث عبادة بزيادة فى أوله وفى اسناده ابن لهيعة

(٢) حديث نظر الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن ـ الحديث: مسلم من حديث صهيب دون نظره الى السماء وضحكه عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضاء الله للمؤمن ان أصابه خير حمد ربه وشكر ـ الحديث:

عن دار الغرور . ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها ، وأنسه بها ، حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته : وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا، ولم يسكن إليها ، ولم يأنس بها ، وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ورضى بها ، واطمأن إليها . والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها . والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى . وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى . بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق . فإذاً فى البلاء نعم من هذا الوجه ، فيجب الفرح به . وأما التألم فهو ضرورى . وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا . فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكره على سبب الفرح . فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال ، وينفع فى المآل . بل من دخل دار ملك للنظارة ، وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه . ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه ، فأصابه ما يكرهه حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه . والدنيا منزل ، وقد دخلها الناس من باب الرحم ، وهم خارجون عنها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة . فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا . ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وحكى أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

اصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

---

(١) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

فقال ابن عباس : ماعزاني أحد أحسن من تعزيته . والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه[1] وسلم «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ» وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَاناً أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَاناً » وقال عليه السلام « مَامِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [(1)]) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْراً مِنْهَا إِلاَّ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ فَجَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » . وروى[2] أن رجلا قال يارسول الله ، ذهب مالي وسقم جسمي . فقال صلى الله عليه وسلم « لاَخَيْرَ فِي عَبْدٍ لاَيَذْهَبُ مَالُهُ وَلاَ يَسْقَمُ جِسْمُهُ إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً ابْتَلاَهُ وَإِذَا ابْتَلاَهُ صَبَّرَهُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لاَيَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلاَءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُهَا بِذَلِكَ » وعن[4] خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكونا إليه ، فقلنا يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمراً لونه ثم قال « إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لاخير في عبد لايذهب ماله ولايسقم جسده ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين

(٣) حديث ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبوداود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه أحمد وأبويعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه الاأبوالمليح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يروعن خالد الاابنه محمد وذكر أبونعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فالله أعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري ذاك المشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبونعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي اياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية ابراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم

(٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا اليه ـ الحديث : تقدم

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزمر : ١٠

فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ حُفَيْرَةٌ وَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » . وعن عليّ كرم الله وجهه قال . أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد . وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه . تولدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على مايفنى ، وتذرون مايبقى : ألا حبذا المكروهات الثلاث ، الفقر ، والمرض ، والموت ، . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا وَثَجَّهُ عَلَيْهِ ثَجًّا فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَارَبِّ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَاهُوَ خَيْرٌ وَادَّخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَاهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفُّوا أَعْمَالَهُمْ بِالْمِيزَانِ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ صَبًّا فَيَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مَا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١)) » . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال . شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه ، فقال يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك ، تزوى عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . ويكون العبد الكافر لايطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك ، تزوى عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا . فأوحى الله تعالى إليه ، إن العباد لى ، والبلاء لى ، وكل يسبح بحمدى . فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى

---

(١) حديث أنس اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا ــ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن انس اخصر منه دون قوله فاذا كان يوم القيامة الى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

---

(١) الزمر ١٠

عنه الدنيا ، وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات ، فأبسط له فى الرزق ، وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته . وروى أنه [1] لما نزل قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [1]) قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه . كيف الفرح بعد هذه الآية ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الأَذَى أَلَسْتَ تَحْزَنُ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ » يعنى أن جميع مايصيبك يكون كفارة لذنوبك

وعن [2] عقبة بن عامر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم قرأ قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ [2]) يعنى لما تركوا ما أمروا به ، فتحنا عليهم أبواب الخير ، (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا [3]) أى بما أعطوا من الخير (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً [4])

وعن [3] الحسن البصرى رحمه الله ، أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية . فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى ، فصدمه حائط فأثر فى وجهه ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِى الدُّنْيَا » . وقال على كرم الله وجهه . ألا أخبركم بأرجى آية فى القرءان؟ قالوا بلى . فقرأ عليهم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجزبه : قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ياأبا بكر ألست تمرض ـ الحديث : من رواية من لم يسم عن ابى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له اسناد صحيح وقال الدار قطنى وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شىء يثبت

(٢) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث : أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٣) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث : وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى

(١) النساء : ١٢٣ (٢ ، ٣ ، ٤) الأنعام : ٤٤

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [١])فالمصائب فى الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً ، و إن عفا عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة

وعن [١] أنس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةِ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا وَلَا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِى سَبِيلِ اللهِ أَوْ قَطْرَةِ دَمْعٍ فِى سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَخَطْوَةٍ إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ »

وعن أبى الدرداء قال : توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام ، فوجد عليه وجداً شديداً. فأتاه ملكان ، فجثيا بين يديه فى زى الخصوم . فقال أحدهما . بذرت بذراً فلما استحصد مر به هذا فأفسده . فقال للآخر ماتقول؟ فقال . أخذت الجادة ، فأتيت على زرع ، فنظرت يميناً وشمالا فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق؟ أما علمت أن لا بد للناس من الطريق ؟ قال فلم تحزن على ولدك ؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه ، ولم يجزع على ولده بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال: يابنى ، لأن تكون فى ميزانى أحب إلىّ من أن أكون فى ميزانك . فقال ياأبت ، لأن يكون ماتحب أحب إلىّ من أن يكون ماأحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال : عورة سترها الله تعالى ، ومؤنة كفاها الله ، وأجر قد ساقه الله . ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال : قد صنعنا ماأمر الله تعالى .قال تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [٢])

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن ، فعزاه مجوسى يعرفه فقال له : ينبغى للعاقل أن يفعل

---

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث على بن أبى طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكى منكر ـ الحديث : وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة ما قطر فى الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل ـ الحديث : وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكى منكر الحديث :

---

(١) الشورى : ٣٠ (٢) البقرة : ٤٥

اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال ابن المبارك . اكتبوا عنه هذه

وقال بعض العلماء . إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء، حتى يمشى على الأرض وماله ذنب

وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير

وقال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس . على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ؛ وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل ، واختفى فى الشجرة ، فعرفوا ذلك ، فجيء بالمنشار ، فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأنّ منه أنّة ، فأوحى الله تعالى إليه ، يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة . فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين

وقال أبو مسعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا ، أوضرب صدرا ، فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه . يابنى ، إن الذهب يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء . فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : مانمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قلتها ثلاثا . فقال : لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد

وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى ، واشك إلىّ ، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك . نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

بيان

فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله [1] صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستعيذ

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا والآخرة : أحمد من حديث بشر بن

فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة (١) . وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) (٢) وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها (٣) . وقال علي كرم الله وجهه . اللهم إنى أسألك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ الْبَلَاءَ فَاسْأَلْهُ الْعَافِيَةَ » وروى (٤) الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ إِلاَّ الْيَقِينَ » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله . الخير الذى لا شر فيه ، العافية مع الشكر . فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله . لأن أعافى فأشكر أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم (٥) فى دعائه « وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ »

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد . وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما: بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ، إما فى الدنيا أو فى الدين ، والآخر: بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب . فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ،

أبى ارطاة بلفظ أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبى داود من حديث عائشة اللهم انى أعوذبك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة

(١) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا فى الدنيا ـ الحديث . ولأبى داود والنسائى من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا اتنا ـ الحديث

(٢) حديث كان يستعيذ من شماتة الأعداء :تقدم فى الدعوات

(٣) حديث قال على رضى الله عنه اللهم انى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسله العافية :الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وانما قال سمع رجلا وله وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث على كنت ساكنا فمر بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ـ الحديث .وفيه فان كان بلاء فصبرنى فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح

(٤) حديث أبى بكر الصديق سلوا الله العافية ـ الحديث . ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة باسناد جيد وقد تقدم

(٥) حديث وعافيتك أحب الى :ذكره ابن اسحاق فى السيرة فى دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لى وكذا رواه ابن أبى الدنيا فى الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

---

(٦) البقرة : ٢٠١

ويسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمة ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر مالا يعطيه على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر عليَّ الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا فى النار ، وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء . فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بُلِيَ بعد هذا البيت بعلة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان . ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب ، حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك . فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام . ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها . فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ، ولا يعول عليه . كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فمنعته ، فقال ما الذى يمنعك عنى ؟ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك . فسمعه سليمان عليه السلام ، فاستدعاه وعاتبه ، فقال ، يانبيّ الله ، كلام العشاق لا يحكى . وهو كما قال . وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد مالا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين. أحدهما : أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال ، فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا ، والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة . فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما فى درهمين ، فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى : أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث أنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه ، تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته . فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم ، أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا . فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء

صار البلاء أحب إليهم من العافية . وهذه حالة لا يبعد وقوعها فى غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت . وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة ، أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه ، العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين

بيان

الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك . فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون الشكر أفضل ، وقال آخرون هما سيان ، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب ، بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول فى بيان ذلك مقامان . المقام الأول : البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته . وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمده الوعاظ . إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم . والظئر المشفقة لا ينبغى أن تصلح الصبى الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف . وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته ، ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيته . فنقول هذا المقام فى البيان يأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضى تفضيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر . بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل ، كقوله صلى الله عليه وسلم (١) « مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » وفى الخبر (٢) « يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ

---

(١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم

(٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث : لم أجد له أصلا

فَيَجْزِيهِ اللهُ جَزَاءَ الشَّاكِرِينَ وَيُؤْتَى بِأَصْبَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَيُقَالُ لَهُ أَمَا تَرْضَى أَنْ نَجْزِيَكَ كَمَا جَزَيْنَا هَذَا الشَّاكِرَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَارَبِّ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَلاَّ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ فَشَكَرَ وَابْتَلَيْتُكَ فَصَبَرْتَ لَأُضَعِّفَنَّ لَكَ الْأَجْرَ عَلَيْهِ فَيُعْطَى أَضْعَافَ جَزَاءِ الشَّاكِرِينَ » وقد قال الله تعالى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [1]) . وأما قوله [2] « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ » فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر ، إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته . ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر . لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر . وهو كقوله صلى الله عليه وسلم [٣] « الْجُمُعَةُ حَجُّ الْمَسَاكِينِ وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ » وكقوله صلى الله عليه وسلم [٤] « شَارِبُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ الْوَثَنِ » وأبداً المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » لايدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » فإن كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا ، وإن كان بينهما تفاوت. كما يقال الإيمان هو العلم والعمل . فالعمل هو نصف الإيمان . فلايدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] « آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ دُخُولاً الْجَنَّةَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانِ مُلْكِهِ

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل : الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفى رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج .. الحديث. وفيه القاسم ابن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات

(٣) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحارث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمرو وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى

(٤) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبدالرحمن ابن عوف لمكان غناه : الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل

(١) الزمر : ١٠

وَآخِرُ أَصْحَابِي دُخُولًا الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانِ غِنَاهُ » وفى خبر آخر (١) « يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » وفى الخبر (٢) « أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى . فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ، ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم . والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثانى : هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور ، بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه . كل أمر بين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الأبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ، لاتمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة ، علوم ، وأحوال ، وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك . وهذه الثلاثة . إذا وزن البعض منها بالبعض ، لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل . وأما أرباب البصائر ، فالأمر عندهم بالعكس من ذلك . فإن الأعمال

داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا الاشعيب بن خالد وهو كوفى ثقة وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف

(١) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا : تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس والحديث منكر

(٢) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فانه باب واحد ـ الحديث : لم أجد له أصلا ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام

تراد للأحوال ، والأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ، لأن كل مرادلغيره ، فذلك الغير لا محالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة ، فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض . وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة ، لأنها تراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد ، إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر . فنقول . فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته ، وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التى تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها . بل هي عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة ، وإنما يشعر بها فى الآخرة فهي المعرفة الحرة التى لا قيد عليها ، فلا تتقيد بغيرها ، وكل ماعداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض ، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل ، فهي أفضل " وأما الأحوال ، فنعني بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذاً فضائل الأحوال بقدر تأثيرها فى إصلاح القلب ، وتطهيره ، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة . وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب . فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال ، فإن تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه . وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة ، موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة ، موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية ، واسم الثانى الطاعة والمعاصى من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة . وكذا الطاعات فى تنوير

القلب وتصفيته . فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ذلك يختلف باختلاف الأحوال .وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره . ولكن التحقيق فيه أن الغني الذى معه مال ،وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه ، فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أومنعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع . فأما هذا المدبّر إذا لم تكن حاله هذه الحال ، فليس يستضر بشهوة بطنه ، ولاهو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره . وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه . والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة ، وقيام ألف ليلة منه ذرة . بل لا يزيله إلا إخراج المال . فعليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا ما ذكرناه فى ربع المهلكات ، فليرجع إليه

فإذاً باعتبار هذه الأحوال يختلف . وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ . إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل . فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب . فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان . وكذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر ، لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا . نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ، فنقول عدم الصفراء ، لأن السكنجبين مرادٌ له ، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لامحالة . فإذاً فى بذل المال عمل ، وهو الإنفاق ، ويحصل به حال ، وهو زوال البخل ، وخروج حب الدنيا من القلب .ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه . فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال ، وبالغ فى ذكر فضلها . حتى طلب الصدقات بقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1]) وقال تعالى (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ[2]) فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ . فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على

(١) البقرة : ٢٤٥ (٢) التوبة : ١٠٤

أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا . فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه ، فإنه لا يشعر به ، ولو ذكر له لا يصدق به ، والسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ، إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه ، فيزول مرضه . فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ، ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه : ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرءان ، وأراد أن يثبت ذلك فى حفظه بحيث لا يزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ، ولا حاجة بى إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد ، فأمر الولد بتعليم العبيد ، ووعده على ذلك بالجميل ، لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم . فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرءان ، وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالى قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبى لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفى به ، وأعلم أنه لا نقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد ، فضلا عن عدم علمهم بالقرءان . فربما يتكاسل هذا المسكين ، فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه ، وعلى كرمه فى العفو عنه ، فينسى العلم والقرءان ، ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدرى .

وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة ، وسلكوا طريق الإباحة . وقالوا إن الله تعالى غنيّ عن عبادتنا ، وعن أن يستقرض منا ، فأي معنى لقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا [1]) ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم ، فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ [2]) وقالوا أيضا (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا [3]) فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم ، وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل . يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء ، أو لأجل الله تعالى ، ثم قالوا

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) يس ٤٧ (٣) الانعام : ١٤٨

لاحظ لنا فى المساكين ، ولاحظ لله فينا وفى أموالنا ، سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه ، وتأكده فى قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به فى استجراره إلى مافيه سعادته . فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق . فإذاً المسكين الآخذ لمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك . فالحجام خادم لك ، لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما ، بأن يكون له غرض فى أن يصنع شيئا بالدم . ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ، ومزكية لها عن خبائث الصفات ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها [١] كما نهى عن كسب الحجام [٢] وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .

والمقصود أن الأعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة . فهذا هو القول الكلى ، والقانون الأصلى الذى ينبغى أن يرجع إليه فى معرفة فضائل الأعمال ، والأحوال ، والمعارف . ولنرجع الآن إلى خصوص مانحن فيه من الصبر والشكر فنقول : فى كل واحد منهما معرفة وحال . وعمل . فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال أو العمل فى الآخر . بل يقابل كل واحد منها بنظيره ، حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل

ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ، ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ، ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان . هذا إن اعتبرتا فى البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة ، وعن المعصية . وفيهما يتحد الصبر والشكر . لأن الصبر

---

(١) حديث النهى عن كسب الحجام: تقدم

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها : مسلم من حديث عبدالمطلب بن ربيعة ان هذه الصدقة لاتحل لنا انما هى أوساخ القوم وانها لاتحل لمحمد ولالآل محمد وفى رواية له أوساخ الناس

على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين . فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة . فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه ! فإذاً مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء. وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية

وأما البلاء ، فهو عبارة عن فقد نعمة . والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا ، وإما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال . أما العينان ، فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى . وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين . أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما فى الطاعة . وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها. والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكر النعمة العينين ، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين، فقد دخل الصبر فى شكره : وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة، فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة. ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر

ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا ، وقد كان ضريرا ، من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام ، وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا : ولكان الكمال فى أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ، ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة فى الدين ، يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين . وذلك لا يكون إلا بصبر . وأما ما يقع فى محل الحاجة ، كالزيادة على الكفاية من المال ، فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة ، وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففى الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل فى المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة ، فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح . وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شىء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل . إذ لاتصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بأن لايستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح ؛ فالصبر ههنا أفضل من الشكر . والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله ، الصارف إياه إلى المباحات، لامن الغني الصارف ماله إلى الخيرات . لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعى لامحالة قوة . والغني أتبع نهمته، وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير ، أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح . والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها . فإن الأعمال لاتراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة فى الإيمان فهو أفضل لامحالة

وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص . لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ، ولايستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة . فإذاً الصبر أفضل من الشكر ، أى الصبر الذى تفهمه العامة ، أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة . وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا مدح الفقير بالعدم ؛ وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما . فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها . فإذا كان الإثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما ، كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر

فى القسم الآخير الذى ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال : الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . فدعا عليه الجنيد ، فأصابه ماأصابه من البلاء من قتل أولاده ، وإتلاف أمواله ، وزوال عقله أربع عشرة سنة . فكان يقول دعوة الجنيد أصابتنى . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر

ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها ، علمت أن لكل واحد من القولين وجها فى بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغني الذى يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لايمسك لنفسه من المال إلاقدر الضرورة ، والباقى يصرفه إلى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها . ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ، ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر

فإن قلت :فهذا لايثقل على النفس ، والفقير يثقل عليه الفقر ، لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر . فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته فى القدرة على الإنفاق

فاعلم أن الذى نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس ، أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به ، وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه ، بل لتأديبها . وذلك يضاهى ضرب كلب الصيد . والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب ، وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة فى البداية ، ولايحتاج إليهما فى النهاية . بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما فى حقه لذيذا عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا. وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين فى البداية ، بل قبل البداية بكثير ، كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل . وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ،

فإذاً إذا كنت لاتفصل الجواب. وتطلقه لإرادة الأكثر ،فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام . فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ،

ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن مع الا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ، ذكرنا أقصاها ، ويدخل في جملتها أمور دونها ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر . وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر، إذ قال عليه السلام [1] « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ » وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام، كما ورد في الأخبار والآثار :

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيراً قد طعن في السن ، فسألته عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي، وهي كذلك كانت تهواني، فاتفق أنها زوّجت مني ، فليلة زفافها . قلت تعالى حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل. فإذاً لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .

---

(١) حديث من لم يشكر الله: تقدم في الزكاة

كتاب الخوف والرجاء

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأ نقمته ، والتهدف لسخطه و نقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر . والعنف ، وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته ، وعلى آله وأصحابه وعترته . أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف . فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما ، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ، ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الأول فى الرجاء ، والشطر الثانى فى الخوف : أما الشطر الأول ، فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذى يجتلب به الرجاء .



بيان حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين ، وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ماهو بينهما كصفرة

المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا ؛ لأنه يحول على القرب . وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال ، وعلم، وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال ، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة . وبيانه أن كل مايلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر فى الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً . وإن كان ماخطر بقلبك موجوداً فى الحال سمي وجداً، وذوقا ، وإدراكا ، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء فى الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً . فإن كان المنتظر مكروها ، حصل منه ألم فى القلب سمي خوفا وإشفاقا . وإن كان محبوبا ، حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح ، سمي ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق . وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء ، فاسم التمني أصدق على انتظاره ، لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أمّا ما يقطع به فلا . إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب . لأن ذلك مقطوع به نعم : يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها ، كالأرض السبخة التي لاينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ولاينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . كما لاينمو بذر فى أرض سبخة . فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضا طيبة ، وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولامسوس ، ثم أمده

بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء : وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة ، مرتفعة لاينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ، لكن لاماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لاتغلب الأمطار ولاتمتنع أيضاً ، سمي انتظاره تمنيا لارجاء .

فإذاً اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ، محمودا فى نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت . وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات . أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم [1] « الْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ » وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [1]) وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا [2]) وذم الله تعالى صاحب البستان ، إذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا

فإذاً العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما العاصى ، فإذا تاب وتدارك جميع مافرط منه

(كتاب الرجاء والخوف)

(١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها ـ الحديث : تقدم غير مرة

(١) مريم : ٥٩ (٢) الأعراف : ١٦٩

من تقصير ، فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية ، تسوءه السيئة ، وتسره الحسنة ، وهو يذم نفسه و يلومها و يشتهى التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة ، يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ [1]) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب ، مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عزوجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته ، فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره ، وطابت أرضه ، وغزر ماؤه ، صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها . فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد . وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد . فمن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء معوز ، وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم ، وهو ضده ، لأنه صارف عن العمل . والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة . فإذاً حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى

---

(1) البقرة : ٢١٨

والتنعم بمناجاته ، والتلطف في التملق له ، فإن هذه الأحوال لابد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك . أوشخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى . فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء ، والنزول في حضيض الغرور والتمني .

فهذا هو البيان لحال الرجاء ، ولما أثمره من العلم ، ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث [١] زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد . فقال « كَيْفَ أَصْبَحْتَ » قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه ، وأيقنت بثوابه. وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه ، وحننت إليه فقال « هذِهِ عَلَامَةُ اللهِ فِيمَنْ يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلأُخْرَى هَيَّأَكَ لَهَا ثُمَّ لَا يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكْتَ » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

بيان

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسيما في وقت الموت . قال تعالى ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ [١] ﴾ فحرم أصل اليأس . وفي أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه . أتدري لمَ فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجني : ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ـ الحديث : الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه انه قال له أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي صلى الله عليه وسلم الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى فقام زيد الخير فقال يارسول الله ـ الحديث : سمعت أبي يقول ذلك

(٢) حديث لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله: مسلم من حديث جابر

---

(١) الزمر : ٥٣

وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ [1] أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَاشَاءَ » [2] ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَارَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان . من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال لأن الله عز وجل غيّر قوما فقال (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ [1]) وقال تعالى (وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا [2])

وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِنْ لَقَّنَهُ اللهُ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ » وفى الخبر الصحيح [4] « أَنَّ رَجُلاً كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيُسَامِحُ الْغَنِيَّ وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَلَقِيَ اللهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه عن الطاعات .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ [3]) ولما قال صلى الله عليه وسلم [5] « لَوْ تَعْلَمُونَ

(١) حديث أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء : ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله فليظن بى ماشاء

(٢) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال كيف تجدك ـ الحديث : الترمذى وقال غريب والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى اسناده جيد

(٣) حديث ان الله يقول للعبد يوم القيامة مامنعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد وقد تقدم فى الأمر بالمعروف

(٤) حديث ان رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر ـ الحديث : مسلم من حديث أبى مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء الا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ـ الحديث وفيه فهبط جبريل ـ الحديث : ابن حبان

(١) فصلت : ٢٣ (٢) الفتح : ١٢ (٣) فاطر : ٢٩

مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَلْدِمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّكُمْ » فهبط جبريل عليه السلام فقال · إن ربك يقول لك لِمَ تقنط عبادى؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم · وفى الخبر [١] « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى . فقال : يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل ، واذكر آلائى وإحسانى ، وذكرهم ذلك ، فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل

ورؤي أبان بن أبى عياش فى النوم ، وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال : أوقفنى الله تعالى بين يديه ، فقال ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت أردت أن أحببك إلى خلقك · فقال قد غفرت لك ، ورؤي يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله بين يديه ، وقال ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت ، قال فأخذنى من الرعب ما يعلم الله . ثم قلت يارب ، ما هكذا حدثت عنك . فقال وما حدثت عنى ؟ فقلت حدثنى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أنس ، عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام ، أنك قلت أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء . وكنت أظن بك أن لا تعذبنى . فقال الله عز وجل : صدق جبريل ، وصدق نبيى ، وصدق أنس ، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق ، وصدقت ، قال فألبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت يالها من فرحة · وفى الخبر [٢] أن رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أويسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ رَجُلاً يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِى يَاحَنَّانُ يَامَنَّانُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ اذْهَبْ فَأْتِنِى بِعَبْدِى قَالَ فَيَجِىءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ

فى صحيحه من حديث أبى هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى ـ الحديث : لم أجد له اصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذى قبله

(٢) حديث ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ـ الحديث : رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا

(٣) حديث ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس

عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ ؟ فَيَقُولُ شَرَّ مَكَانٍ قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ قَالَ فَيَمْشِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ ؟ فَيَقُولُ لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لَا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ » فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف فى المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال . فأما العاصى المغرور المتمنى على الله ، مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصى ، فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة فى حقه ، وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة . بل المغرور لا يستعمل فى حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المهيجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل ، معالجا لكل علة بما يضادها ، لا بما يزيد فيها . فإن المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوساطها . فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين ، عولج بما يرده إلى الوسط ، لا بما يزيد فى ميله عن الوسط. وهذا الزمان زمان لا ينبغى أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة فى التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب . فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية . ولكنها لما كانت أخف على القلوب ، وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا ، مالوا إلى الرجاء ، حتى ازداد الفساد فسادا ، وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا . قال علىّ كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل فى حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتملان على الخوف

والرجاء جميعا ، لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة ، استعمال الطبيب الحاذق ، لااستعمال الأخرق الذى يظن أن كل شيء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان

وحال الرجاء يغلب بشيئين :أحدهما الاعتبار ، والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر ، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا . وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتى أعد له فى الدنيا كل ماهو ضروري له فى دوام الوجود . كآلات الغذاء . وماهو محتاج إليه كالأصابع والأظافر ، وما هو زينة له . كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وحمرة الشفتين ، وغير ذلك مما كان لاينثلم بفقده غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال

فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق ، حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا ، علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا ، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا ، أو لا يحشر أصلا . فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة . وإنما الذى يتمنى الموت نادر . ثم لايتمناه إلا فى حال نادرة ، وواقعة هاجمة غريبة

فإذاً كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لاتجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو غفور رحيم ، لطيف بعباده ، متعطف عليهم . فهذا إذا تُؤُمِّلَ حق التأمل قوي به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسننها فى مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ، ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه ، فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه !

الفن الثانى :استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر

أما الآيات ، فقد قال تعالى (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١]) وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « وَلَا يُبَالِى إِنَّه هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وقال تعالى (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ [٢]) وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه ، فقال (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ [٣]) وقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [٤]) وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لَايَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى [٥]) وقال عز وجل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ [٦])

ويقال [٢] إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ [٧]) ؟ وفى تفسير قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [٨]) قال لا يرضى محمد وواحد من أمته فى النار

وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ [٩]) الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [١٠]) . وأما الأخبار [٣] فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لَاعَذَابَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَجَّلَ اللهُ عِقَابَهَا فِي الدُّنْيَا الزَّلَازِلَ وَالْفِتَنَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقِيلَ

---

(١) حديث قرأ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى : الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد وقال حسن غريب

(٢) حديث ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له اما ترضى وقد أنزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم : لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبى حاتم والثعلبى فى تفسيرها من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيش ــ الحديث :

(٣) حديث أبى موسى أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن . الحديث :

(١ ، ٩) الزمر : ٥٣ (٢) الشورى : ٥ (٣) الزمر : ١٦ (٤) آل عمران : ١٣١ (٥) الليل : ١٤ ، ١٥

(٦ ، ٧) الرعد : ٦ (٨ ، ١٠) الضحى : ٥

هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ » وفى لفظ آخر[1] « يَأْتِى كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ بِيَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ هَذَا فِدَائِى مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » وروي فى تفسير قوله تعالى (يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ[1])[3] أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، أنى أجعل حساب أمتك إليك ، قال لا يارب ، أنت أرحم بهم منى: فقال إذاً لانخزيك فيهم . وروى عن[4] أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته ، فقال « يَارَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِى » فأوحي الله تعالى إليه ، هم أمتك ، وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك ، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك . وقال صلى الله عليه وسلم « حَيَاتِى خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِى خَيْرٌ لَكُمْ أَمَّا حَيَاتِى فَأَسُنُّ لَكُمُ السُّنَنَ وَأَشْرَعُ لَكُمُ الشَّرَائِعَ وَأَمَّا مَوْتِى فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَنًا حَمِدْتُ اللهَ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئًا اسْتَغْفَرْتُ اللهَ تَعَالَى لَكُمْ »

أبى داود دون قوله فاذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفى صحيحه من حديث أبى موسى كما سيأتى ذكره فى الحديث الذى يليه

(١) حديث يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودي أونصراني إلى جهنم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أونصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفى رواية له لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا

(٢) حديث الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار : أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى عن أبى أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه

(٣) حديث أن الله أوحي إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أنى أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم منى ـ الحديث : فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ـ الحديث : لم أقف له على أصل

(٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم ـ الحديث : البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وأن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف

---

(1) التحريم : ٨

[1]وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ » فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته، بدلها حسنات بكرمه[2] وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول: اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال « هَلْ تَدرِى مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟» قال لا. قال« دُخُولُ الْجَنَّةِ» قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا ، إذ قال تعالى (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً[1])

وفى الخبر[3] « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْباً فَاسْتَغْفَرَ اللهَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلاَئِكَتِهِ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ » . وفى الخبر[4] « لَوْ أَذْنَبَ الْعَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ مَا اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي » . وفى الخبر[5] « لَوْ لَقِيَنِي عَبْدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوباً لَقِيتُهُ بِقُرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً » . وفى الحديث[6] « إِنَّ الْمَلَكَ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً »

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم العفو ـ الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثنى بعض الزهاد فذكره

(٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة ـ الحديث تقدم

(٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى لملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ أن عبدا أصاب ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفرلى ـ الحديث : وفى رواية أذنب عبد ذنبا فقال ـ الحديث :

(٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ـ الحديث : الترمذى من حديث أنس ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقال حسن

(٥) حديث لو لقينى عبدى بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة: مسلم من حديث أبي ذر ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة وللترمذى من حديث أنس الذى قبله ياابن آدم لو لقيتنى ـ الحديث :

(٦) حديث أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه ـ الحديث قال وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه أن صاحب اليمين

---

(١) المائدة : ٣

وفى لفظ آخر « فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ أَلْقِ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أُلْقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضْعِيفَ الْعَشْرِ وَأَرْفَعَ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ » . وروى(١) أنس فى حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ عَلَيْهِ » فقال أعرابى : وإن تاب عنه ؟ قال « مُحِيَ عَنْهُ » قال فإن عاد؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال الأعرابى فإن تاب ؟ قال « مُحِيَ مِنْ صَحِيفَتِهِ » قال إلى متى ؟ قال « إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلَّ الْعَبْدُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ فَإِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَإِذَا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةً وَاحِدَةً وَوَرَاءَهَا حُسْنُ عَفْوِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(٢) . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ، ولا حج ، ولا تطوع ، أين أنا إذا مت؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نَعَمْ مَعِي إِذَا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ.

أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتي يلقى من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا

(١) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابى فان تاب عنه قال محى عنه قال فان عاد ـ الحديث وفيه أن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار ـ الحديث : البيهقى فى الشعب بلفظ جاء رجل فقال يارسول الله انى أذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فأستغفر ثم أعود قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصرى منكر ـ الحديث : وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر لأحدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود ـ الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تملوا وليس فى الحديثين قوله فى آخره فاذا هم العبد بحسنة ألخ وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الي سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم فى رواية أو محاها الله ولا يهلك على الله الا هالك ولهما نحوه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث جاء رجل فقال يارسول الله أنى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلى الا الخمس لا أزيد عليها وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع ـ الحديث : تقدم

الْغِلِّ وَالْحَسَدِ وَلِسَانَكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ الْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ وَعَيْنَيْكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ النَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَنْ تَزْدَرِيَ بِهِمَا مُسْلِماً دَخَلْتَ مَعِيَ الْجَنَّةَ عَلَى رَاحَتَيَّ هَاتَيْنِ » . وفى الحديث الطويل لأنس [١] ، أن الأعرابى قال يارسول الله ، من يلى حساب الخلق؟ فقال « اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » قال هو بنفسه ؟ قال « نَعَمْ » فتبسم الأعرابى . فقال صلى الله عليه وسلم « مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَعْرَابِيُّ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صَدَقَ الْأَعْرَابِيُّ أَلَا لَا كَرِيمَ أَكْرَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ » ثم قال « فَقُهَ الْأَعْرَابِيُّ » وفيه أيضا « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَّفَ الْكَعْبَةَ وَعَظَّمَهَا وَلَوْ أَنَّ عَبْداً هَدَمَهَا حَجَراً حَجَراً ثُمَّ أَحْرَقَهَا مَا بَلَغَ جُرْمَ مَنِ اسْتَخَفَّ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى » قال الأعرابى . ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [١]) وفى بعض الأخبار [٢] « الْمُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ » [٣] « وَالْمُؤْمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ » [٤] « وَالْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وفى الخبر [٥] « خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رَحْمَتِهِ سَوْطاً يَسُوقُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ » . وفى خبر آخر « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ [٦] إِنَّمَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لِأَرْبَحَ

---

(١) حديث أنس الطويل قال أعرابى يارسول الله من يلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه ال نعم فتبسم الاعرابى .. الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث المؤمن أفضل من الكعبة : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخيرا وشيخه نصر بن محمد ابن سليمان الحمصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن طيب طاهر : لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس

(٤) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة : ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف

(٥) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة : لم أجده هكذا ويغنى عنه ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة فى السلاسل

(٦) حديث قال الله انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم : لم أقف له على أصل

---

(١) البقرة : ٢٥٧

عَلَيْهِمْ » . وفى حديث [١] أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَاخَلَقَ اللهُ تَعَالَى شَيْئًا إِلاَّ جَعَلَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ » وفى الخبر المشهور [٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » : وعن [٣] معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » [٤] « وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ » [٥] « وَمَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ » [٦] « وَلاَ يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » وفى خبر آخر [٧] « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ مَا أَيِسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » [٨] ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

---

(١) حديث أبى سعيد ما خلق الله شيئا الاجعل له مايغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه : أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الميزان ليس بواه ولا بمجهول

(٢) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتى تغلب غضبى : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث معاذ وأنس من قال لا إله الا الله دخل الجنة : الطبرانى فى الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو فى اليوم والليلة وللنسائى بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم فى الأذكار

(٤) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار : أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة

(٥) حديث من لقى الله لايشرك به شيئا حرمت عليه النار : الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ مامن عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله الاحرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفى رواية له من لقى الله لايشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله فى الجنة وللنسائى من حديث أبى عمرة الأنصارى فى أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لايلقى الله عبد يؤمن بهما الاحجب عن النار يوم القيامة

(٦) حديث لايدخلها من فى قلبه وزن ذرة من إيمان : أحمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان انى لأعلم كلمة ولايقولها عبد حقا من قلبه الاحرم على النار قال عمر بن الخطاب هى كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار واخراجهم بالشفاعة نعم لايبقى فى النار من فى قلبه وزن ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد وفيه فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه وقال مسلم من خير بدل من إيمان.

(٧) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ماأيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٨) حديث لما تلا ـ ان زلزلة الساعة شىء عظيم ـ قال أتدرون أى يوم هذا ـ الحديث: الترمذى من حديث

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ[1]) قال « أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا ؟ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لِآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ كَمْ ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » قال فأبلس القوم ، وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مَا لَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ ؟ » فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كَمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ أَيْنَ تَاوِيلُ وَتَارِيسُ وَمَنْسِكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَمٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَكَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى ؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس ، داواهم بدواء الرجاء ، وردهم إلى الاعتدال والقصد . والآخر لم يكن مناقضا للأول ؛ ولكن ذكر فى الأول ما رآه سببا للشفاء ، واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر : فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ ، فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة ، بعد ملاحظة العلل الباطنة ؛ وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه

وفى الخبر[1] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ » وفى لفظ آخر « لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرَ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وفى الخبر[2] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ » قيل وما هو ؟ قال « الْعُجْبُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[3] « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ

عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد

(١) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفى لفظ لذهب بكم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى أيوب واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه

(٢) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب : البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وتقدم فى ذم الكبر والعجب

(٣) حديث والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بنحوه

---

(١) الحج : ١

مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا » وفي الخبر [١] « لَيَغْفِرَنَّ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَا خَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ حَتَّى أَنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ » وفي الخبر [٢] « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ فَتَحِنُّ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَتَعْطِفُ الْبَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هَالِكٌ »

وفي الخبر [٣] « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ » قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام [٤] « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْجِهِ عَمَلُهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي أَتُرَوْنَهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَّقِينَ بَلْ هِيَ لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْمُخَلِّطِينَ » وقال عليه الصلاة والسلام [٦] « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى [٧] « أُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَنَّ فِي دِينِنَا سَمَاحَةً » ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين فى قولهم (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

---

(١) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف

(٢) حديث ان لله تعالى مائة رحمة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٤) حديث اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لن ينجيه عمله : تقدم أيضا

(٥) حديث انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ـ الحديث : الشيخان من حديث أبى هريرة لكل نبى دعوة وانى خبأت دعوتى شفاعة لأمتى ورواه مسلم من حديث أنس وللترمذى من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ولابن ماجه من حديث أبى موسى ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ـ الحديث : وفيه من لم يسم

(٦) حديث بعثت بالحنفية السمحة السهلة : أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبرانى من حديث ابن عباس أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحاق ورواه بالعنعنة

(٧) حديث أحب ان يعلم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة : أبو عبيد فى غريب الحديث وأحمد

إِصْرًا (١)) وقال تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (٢)) وروى (١) محمد بن الحنفية ، عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لما نزل قوله تعالى (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٣)) قال « يَاجِبْرِيلُ وَمَا الصَّفْحُ الْجَمِيلُ » قال عليه السلام . إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه، فقال « يَاجِبْرِيلُ فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاتِبَ مَنْ عَفَا عَنْهُ » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول . كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا مالا يشبه كرمى

والأخبار الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه . من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا ، فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة . ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا ، فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة، وقال الثورى : ما أحب أن يجعل حسابى إلى أبوى ، لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة ، كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه ، فرفع يديه يدعو يقول ياربى ، حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة . حتى إذا قال الرابعة ياربى ، قال الله تعالى حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى ؟ قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى . أُشهدكم أنى قد غفرت له

وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لى الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب ، فقلت ياربى اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا . فهتف بى هاتف من البيت ، يا ابراهيم ، أنت تسألنى العصمة ، وكل عبادى المؤمنين يطلبون منى ذلك ،فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ . وكان الحسن يقول . لولم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين .

ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له . إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال يا أبا يحيى ،

---

(١) حديث محمد بن الحنفية عن على لما نزل قوله تعالى ـ فاصفح الصفح الجميل ـ قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ـ الحديث: ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على على مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث ؛ وفى اسناده نظر

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الاعراف : ١٥٧ (٣) الحجر : ٨٥

إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح .

وفى حديث ربعى بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال : لما مات أخى سجي بثوبه ، وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال : إنى لقيت ربى عزوجل ، فحيانى بروح وريحان ، وربى غير غضبان ، وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون ، فلا تفتروا ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه ، فكأنها كانت حصاة وقعت فى طشت ، فحملناه ودفناه

وفى الحديث (١) « أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَاخَيَا فِي اللهِ تَعَالَى فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الآخَرُ عَابِداً وَكَانَ يَعِظُهُ وَيَزْجُرُهُ فَكَانَ يَقُولُ دَعْنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيباً حَتَّى رَآهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى كَبِيرَةٍ فَغَضِبَ فَقَالَ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْظُرَ رَحْمَتِي عَلَى عِبَادِي اذْهَبْ أَنْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ثُمَّ يَقُولُ لِلْعَابِدِ وَأَنْتَ فَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَهْلَكَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ »

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق فى بنى إسرائيل أربعين سنة ، فمر عليه عيسى عليه السلام ، وخلفه عابد من عباد بنى إسرائيل من الحواريين . فقال اللص فى نفسه : هذا نبي الله يمر ، وإلى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معهما ثالثا . قال فنزل ، فجعل يريد أن يدنو من الحوارى ، ويزدرى نفسه تعظيما للحواري ، ويقول فى نفسه مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد ! قال وأحس الحوارى به ، فقال فى نفسه هذا يمشى إلى جانبي ! فضم نفسه ومشي إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه ، فبقى اللص خلفه . فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما . أما الحواري ، فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر ، فقد أحبطت سيآته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك ، وضم اللص إليه فى سياحته ، وجعله من حوارييه .

وروى عن مسروق ، أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا ، فوطىء عنقه بعض العصاة ، حتى

---

(١) حديث أن رجلين من بنى إسرائيل تواخيا فى الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة إسناده حسن

ألزق الحصى بجبهته . قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا ، فقال اذهب فلن يغفر الله لك : فأوحى الله تعالى إليه : تتألى عليَّ فى عبادى ! إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن [(١)] ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ، ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ [(١)]) الآية فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام .

وروى فى الأثر أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين فى العبادة ، قال فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة ، فرفعته عليّ فى عليين ؟ فيقول الله سبحانه . إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف . فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه ، وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « سَلُوا اللهَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيمًا » وقال [(٣)] « إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ » وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس فى العشية

---

(١) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شىء فترك الدعاء عليهم ـ الحديث: البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل ليس لك من الامر شىء إلى قوله فانهم ظالمون ورواه الترمذى وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم وقال حسن غريب وفى رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للاسلام وقال حسن صحيح

(٢) حديث سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ

(٣) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة وسألوا الفردوس الاعلى فان الله لايتعاظمه شيء: مسلم من حديث أبى هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لى ان شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فان الله عز وجل لايتعاظمه شيء أعطاه والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

---

(١) آل عمران : ١٢٨

التى قبض فيها ، فقلنا ياأبا عبد الله ، كيف تجدك . قال لا أدرى ما أقول لكم ، إلا إنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب . ثم ما برحنا حتى أغمضناه

وقال يحي بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب، يغلب رجائى إياك مع الأعمال لأنى اعتمد فى الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف . وأجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك ، وكيف لاتغفرها وأنت بالجود موصوف . . وقيل إن مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال إن أسلمت أضفتك ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى إليه . يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسى ، فرده وأضافه ، فقال له المجوسى . ماالسبب فيما بدالك ؟ فذكر له . فقال له المجوسى . أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض علىّ الإسلام . فأسلم . ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له كيف حالك . فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا، ورأى بعضهم أباسهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لاتوصف ، فقال له ياأستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى بربى . وحكي أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى ، رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول . أين العلماء ؟ قال فجاؤا . ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا . قال . فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه . فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم . ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ، ودفع الى غلامه أربعة دارهم ، وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات . قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعولك ؟ فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله علىّ دارهمى ، فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم . فدعا منصور فرجع الغلام ، فقال له سيده : لمَ أبطأتَ ؟ فقص عليه القصة . قال وبم دعا ؟ فقال سألت

لنفسي العتق . فقال له اذهب فأنت حر . قال وإيش الثاني ؟ قال أن يخلف الله عليّ الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم . وإيش الثالث ؟ قال أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى قال وإيش الرابع ؟ قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم وللمذكر . قال هذا الواحد ليس إلىّ . فلما بات تلك الليلة ، رأى في المنام كأن قائلا يقول له . أنت فعلت ما كان إليك ، أجمعين أني لا أفعل ما إليّ ؟ قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين أفترى

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال ، رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، وصلينا عليها ، ودفنا الميت . فقلت للمرأة من كان هـذا الميت منك ؟ قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى ولكن صغروا أمره . قلت وإيش كان هذا ؟ قالت مخنثا . قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا . قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكرني . فقلت من أنت ؟ فقال: المخنث الذي دفنتموني اليوم ، رحمني ربي باحتقار الناس إياي . وقال ابراهيم الأطروش . كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة ، إذ مر أحداث في زورق ، يضربون بالدف ويشربون ويلعبون . فقالوا لمعروف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين ؟ ادع الله عليهم : فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة . فقال القوم ، إنما سألناك أن تدعو عليهم . فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم . وكان بعض السلف يقول في دعائه . يارب، وأى أهل دهر لم يعصوك ، ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ، ورزقك عليهم دارا . سبحانك ما أحلمك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق ، حتى كأنك يا ربنا لا تغضب .

فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين . فأما الحمقى المغرورون ، فلا ينبغي أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء ، والصبي العرم ، لا يستقيم إلا بالسوط والعصا ، وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا

فهرست الجزء الثانى عشر

	صفحة
بيان أقسام العباد فى دوام التوبة	٢١٣٩
توبة ذى النفس المطمئنة	
توبة ذى النفس اللوامة	٢١٤٠
توبة ذى النفس السوالة	٢١٤١
توبة النفس الأمارة	٢١٤٢
بيان ما ينبغى ان يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق	٢١٤٤
استغفار العبد أمان له	٢١٤٦
ثمرة التوبة	٢١٤٧
الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار	٢١٥٠
الايمان بأصل الشرع	٢١٥١
الوثوق بالرسول صلى الله عليه وسلم	
الاصغاء الى وعيد الله وتحذيره	
طلب العلم ونشره	
علة اكثرية مرض القلوب على مرضى الأبدان	٢١٥٢
طريق الوعظ	٢١٥٣
ذكر الآيات والأخبار المخوفة	
ذكر حكايات ذنوب الأنبياء والأولياء	٢١٥٥
ذكر تعجيل عقوبة الذنوب فى الدنيا	٢١٥٦
ذكر حدود الذنوب والنفوس فى الوجوه	٢١٥٨
اسباب الوقوع فى المعاصى	٢١٦٢
الفكر الحقيقى دواء الوقوع فى المعاصى	٢١٦٣
كتاب الصبر والشكر	٢١٦٨
الشطر الأول فى الصبر	
بيان فضيلة الصبر	٢١٦٩
بيان حقيقة الصبر ومعناه	٢١٧١
بيان كون الصبر نصف الايمان	٢١٧٧
بيان الأسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة الى ماعنه الصبر	٢١٧٨
بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف	٢١٨٠
الصديقون المقربون	
الغافلون	
المجاهدون	٢١٨١
أقسام الصبر باعتبار اليسر والعسر	
تقسيمه باعتبار حكمه	٢١٨٢
بيان مظان الحاجة الى الصبر وان العبد لا يستغنى عنه فى حال من الأحوال	٢١٨٣
الصبر على مايوافق الهوى	
معنى الصبر على العافية	
الصبر على مالا يوافق الهوى	٢١٨٤
الصبر على الطاعة	
حالات احتياج المطيع الى الصبر	
الصبر على المعصية	٢١٨٥
الصبر على الأمور التى للعبد اختيار فى دفعها	٢١٨٦
الصبر على الأمور التى لا تدخل تحت الاختيار	٢١٨٧
نتيجة حسنة لصبر الرميصاء الجميل	٢١٩٠
البكاء لا ينافى الصبر	
بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه	٢١٩٣
سبيل ضعف الباعث الشهوانى	
سبيل تقوية الباعث الدينى	٢١٩٤
الشطر الثانى من الكتاب فى الشكر	٢٢٠١
الركن الأول فى نفس الشكر	
بيان فضيلة الشكر	
بيان حد الشكر وحقيقته	٢٢٠٤
الأمور التى ينتظم منها الشكر	
العلم	
الحال المستمدة من أصل المعرفة	٢٢٠٦
العمل بموجب الفرح	٢٢٠٧
بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر فى حق الله تعالى	٢٢٠٩
حكم ترتيب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية	٢٢١٧

	صفحة
بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه	
ما من مخلوق الا وفيه حكمة	٢٢١٨
حكمة النقدين والتعامل بهما	٢٢٢٠
حكمة تحريم الربا	٢٢٢٣
وجوب التأدب عند حدود الله تعالى	٢٢٢٩
الركن الثانى من أركان الشكر ، ماعليه الشكر	٢٢٣٣
بيان حقيقة النعمة وأقسامها	٢٢٣٤
تقسيم الأمور بالنسبة الينا	
تقسيم الخيرات باعتبار التأثير	٢٢٣٥
مقارنة بين العلم والمال	٢٢٣٧
تقسيم النعم باعتبار غايتها	٢٢٣٩
الفضائل النفسية	٢٢٤٠
وجهة احتياج طريق الآخرة للمال وغيره من النعم الخارجية	٢٢٤١
الفضائل المنسوبة ومعناها	٢٢٤٤
وجهة أن المال نعمة مع أنه ذم شرعا	٢٢٤٥
منازل الهداية	٢٢٤٨
بيان وجه الانموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء	٢٢٥٠
الطرف الأول فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الادراك	٢٢٥١
الطرف الثانى فى أصناف النعم فى خلق الارادات	٢٢٥٤
الطرف الثالث فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة	٢٢٥٥
وظيفة اليد	
وظيفة الفم وظيفة الأسنان	٢٢٥٦
وظيفة اللعاب وظيفة المرىء والحنجرة	٢٢٥٧
وظيفة المعدة وظيفة الكبد	
وظيفة المرارة وظيفة الكليتين	٢٢٥٨
وظيفة الصفراء	
الروح	٢٢٥٩
الطرف الرابع فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل منها الأطعمة	٢٢٦٢
فائدة الرياح فائدة الشمس فائدة القمر	٢٢٦٣
فائدة النجوم	٢٢٦٤
الطرف الخامس فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة اليك	٢٢٦٦
الطرف السادس فى اصلاح الأطعمة مايحتاجه الرغيف حتى يصلح للأكل	٢٢٦٧
الطرف السابق فى اصلاح المصلحين	٢٢٦٨
الانسان مدنى بطبعه	٢٢٦٩
الطرف الثانى فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام	
طبقات الملائكة	٢٢٧٠
الملائكة وحدانيو الصفات	٢٢٧٢
المعصية التافهة كفر بجميع نعم الله تعالى	٢٢٧٣
بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر	٢٢٧٥
الغفلة اللاهية وأسبابها	
النعم الخاصة بكل عبد	٢٢٧٦
الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر	٢٢٨١
بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شىء واحد	
البلاء المطلق ــ البلاء المقيد	٢٢٨٢
مواضع الشكر فى البلاء	٢٢٨٤
بيان فضل النعمة على البلاء	٢٢٩٢
بيان الأفضل من الصبر والشكر	٢٢٩٥
تلازم معرفتى الشكر والصبر	٢٣٠١
الأفضلية بين الغنى الشاكر أو الفقير الصابر	٢٣٠٤
كتاب الخوف والرجاء	٢٣٠٨
بيان حقيقة الرجاء	
بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	٢٣١٢
بيان دواء الرجاء والسبيل الذى يحصل منه حال الرجاء ويغلب	٢٣١٥
ما يغلب به الرجاء	
الآيات فى الرجاء	٢٣١٧
الأخبار فى الرجاء	